

الأعمال الشعرية
POETRY COLLECTION

علي كنعان



2





2

الأعمال الشعرية

علي كنعان

الأعمال الشعريّة (2) / شعر عربيّ معاصر
علي كنعان / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الأولى ، 2010



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والخطوط والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف : **ناصر البخيت / السودانّ**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-377-3



POEMS

الأعمال الشعرية

علي كنعان



الجزء الثاني



V

أسْئِلَةٌ لِلرِّيَاح

الطبعة الأولى : وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٩٩

شظايا

- ١ -

في سباقِ الخيول
مدَّت الخنفساء
رأسَها تطلبُ الجائزة
صاح فأرُ الحقول :
«إنها الوعلةُ الفائزة!»
من يلومُ عِصِيَّ الغَجَر
حين تنسى السماء
رعدَها في أديمِ الطبول؟!

- ٢ -

النارُ تحت قشرةِ الصوَّان
والدفء في جوانح الشجر
من يدَّعي جنونُه قوسَ المطر؟
ومن يجاري نفحاتِ اللطفِ والصفاءِ
في تناغمِ الألوان؟

- ٣ -

مَلِكٌ من زجاج
وقلاعٌ خزَف
في بيوتِ الدجاج
كلُّ حقٍّ تنادي به . .
حسبوه ترف
فاحترسْ أن تبيتَ وراء السياج
واقتصد بالعلف!

- ٤ -

مثلَ نهرٍ يتلوّى في جليد الحقبِ
تنفرُ الأفعى وتغلي في دمي
آن يا سيدتي أن تعلمي
أن خمراً كنزيف العلقمِ
هي من أوشالِ ذاك العنبِ .

- ٥ -

بدأ الإسلامُ بالكِلْمةِ
مصباحاً من الرحمةِ

والحقِّ المبين . . .
ثمَّ صار السيفُ سلطاناً وحيداً
في حوارِ المسلمين!

***

أمرُهم شورى . . ولكنْ
بسعارٍ قبليّ . .
أو بما يشبه حمّى الانقلابِ العسكريّ
أنزلوا الله إلى السوقِ
وسدوا كلَّ أبوابِ السماء
علَّبوه . . وتنادَوا ليبيعوا باسمه
داراتِ عدنٍ وحوانيتَ القضاء
وعلى مائدة التاريخِ
مازالت وفودُ الفقهاء
تتغنّى أنَّ بيتَ المال خيرٌ
من ألوفِ الخلفاء!

- ٦ -

شارعٌ مثقلٌ بالضنى والتعب
يستبد بأقداره عنكبوت
عالمٌ ينزوي موغلاً في سديمِ الغياب
حائراً بين غيمِ التكايا وذلِّ البيوت
تاجرٌ مفلسٌ ، لا يؤمِّلُ دنيا ولا آخرة

فارسٌ أعزلٌ يتّقي طعنةً غادرة
دافنا رأسه في رماد السكوت
طفلةٌ تحتمي بالحجاب
أمةٌ تشتهي لو تموت
قبل أن يعرضوا لحمَها
في صحونِ الكلاب!

- ٧ -

طاف الهوى بالأرضِ
أشعلَها . . فأزهرتِ الجراح
طابت مواسمُنا وفاضت
بالبيادرِ والأغاني والأقاح
وتوهّجت سحبُ الجنون
الليلُ يوشكُ أن يغادرَنا
بلا نعشٍ ولا أسفٍ
ولكنَّ الصباح
ما زال أبعدَ ما يكون!

١٩٨٩

الخلاص

قبيلةٌ تبحثُ عن خلاصِها السحرِيّ
في عنكبوت الشعر ، في مسارب الجنون
يقال إن شيخَها - قطبَ الرحى - مسكون
بكل ما يُضفي على جلاله البهيّ
من سرٍّ وحدانيةِ اللهِ
وإعجازِ النبيّ

***

قبيلةٌ مثخنةٌ بدائها الخفيّ
ريح السموم حوّلت واحاتِها
إلى ملاهٍ وتكايا وحصون
أعيانها الصِّيد سكارى دائماً
بنُعمَياتِ البيعِ والبغاءِ والمجون
وأهلُها داخوا مَع العصرِ الذي
تحكمُه طاحون
يلهو بهم تهافتُ الموتى
وحقد التاجر الخصيّ
فلست تدري أيُّهم ميْتٌ

وأيٌّ حيّ؟

***

قبيلةٌ تبحثُ عن خلاصها . .
تغلغلت في غبش اللاهوتِ
في مجاهل الحروف والأسماء
غاصت إلى لبابها السريّ
واستكشفت طفولةَ الأشياء
لكنها تناستِ الفعلَ الذي
يحوِّل الزيتَ إلى ضياء
فلم تجد في رأسها الصخريّ
من بارقٍ ترجوه
إلا سحبَ الأفيون!

١٩٩٠/٤/٥

الكثبان

ربوةٌ . . ربوتان
من غضارِ اليمامةِ
أو من حريرِ الشآم
مدائنُ رجراجةٌ بالربا والمعارج
تهيمُ بعشّاقها في ظلال الغمام
وتوقظُ في غبَشِ الذاكرة
صبابات «كثبان عالج»(*)
ونهرٌ من الوهجِ والأرجوان
ضفّتاه تكسّرتا
– شغفاً أو سغب–
كجناحَيْ يمام
زورقٌ بات مكتنزاً بالندى
واللهب
وفي موسمِ الحرثِ والنزوان
تكوّرَ وانفجَّ

(*) حكايتها في (رسالة الغفران) للمعري .

ثم انطوى وانزوى
أرنباً خائفاً في خليجِ الأمان .

١٩٩١

الشاهدة

كان يمشي حافياً بين الصخور
تأكلُ الأشواكُ أزهارَ صباه
ويداري عيشةً جرباءَ
لا تقبلُها حتى الشّياه
ركبَ الموجَ الذي يرفعه
أعلى فأعلى . .
ثم يرتاد به أروقةَ الغيمِ
وأحلامَ النسور
حطَّتِ الريحُ به في ترفِ الشرقِ
وطغيانِ القصور
فتناسى أمَّه
زوجتَه الأولى . .
وأطيافَ العصافيرِ
ولم يرحمْ أباه
صار مخلوقاً بلا ذاكرةٍ
كتلةَ شحمٍ وغرور
ربما . . نصفَ إله!

***

وتدورُ الساعةُ العشواءُ . .
ليلٌ يتمادى
ورياحٌ لا تواتي
وبحارٌ من جليد
وهو في صحرائه ذئبٌ وحيد

***

في عَشِيّاتِ اكتمالِ القمرِ الراشحِ
من بين كوابيسِ الضّنَى
كان يبكي مثل جنديٍّ جريح
نُسِفتْ من خلفه كلُّ الجسور
أتراه كان يدري
أنَّ مستقبلَه في أطيبِ الأنواء
لا أكثرَ من شاهدةٍ
مشلوحةٍ
بين ملايين القبور؟!

١٩٩٠/٣/٢

الإعصار

«من الممكن أن يُسحَقَ الإنسانُ

لكنّه لا يُهزَمُ أبداً . . .»

– هيمنغواي : (الشيخ والبحر)

حين يفور البحرُ
كي يعلنَ عن أوجاعِه السوداءِ
أو طموحِه المكبوت
وعندما يدمدمُ الزلزال
أنَّ ضميرَ الأرض لا يحتملُ السكوت
عما يغتلي في غابة الإنسان من أهوال
من يدّعي أن لديه حكمةَ الهنود
أو براعةَ الحواة
في معرفة الفصول
والتمييز بين الماء والنار
وبين صفرةِ الجوعِ
وصنّاجاتِ رأسِ المال؟!

***

إعصار (خرْبطْشوفيا)
يغزلُ بين الألبِ والأورال

يولج سورَ الصينِ في صحراءِ نيفادا
ويُصلي بَنَما على جمارِ الطَّلحِ
بين عدوةِ الخليجِ والصومال
وتنتهي إفريقيا . .
- وبعضهم يدغم فيها كندا وآسيا-
جزيرةً قفراءَ في بحرِ الشمال!

. . . . .

عاصفةٌ كونيَّةُ الأهواءِ والذيول
- اللّهم يا ستَّارُ ، أبعدنا عن الشططا-
عاصفةٌ تخبِّصُ اليسارَ باليمينِ بالوسط
وتعجنُ الممكنَ بالمحالِ
والجوابَ بالسؤالِ
والصحيحَ بالغلط
ماذا تبقّى للضميرِ الحرِّ
كي يختارَ ما بين الخيالِ والخبال؟!
جربانيا . .
مورانيا . .
لوبانيا . . .(*)
هل استحال كوكبُ البشر
غزالةً نجديَّةً طريدة

(*) إن خلط الحروف مقصود في هذه الأسماء وليس فانتازيا عابثة .

تكاد لا تسلمُ من كمين
إلا لكي تساقَ دون رحمةٍ
إلى كمين؟
وقادة الجحافل العتيدة
أقمارُهم تلاحق الأثر
وفي كهوفِ الشرقِ والغربِ معاً
يهيِّئون النارَ والسكين!

. . .

يا عشّاقَ الفلَكِ الأمريكيِّ الأغبر
من يعرف لونَ البابا؟
نجمَ العرّاب؟
أخضر؟ أحمر؟ أبيض؟ أصفر؟
أم ممزوجٌ من كلِّ الألوانِ . .
ومعصورٌ من كل الأعناب؟!

. . .

جمرانيا . . بلفاكيا . . شنغاريا . .
جمرانيا . . دارت بها فحولةُ الدولار
في نزواتِ سوقِه السوداء
داخت من العشقِ . .
وغشّاها سديمُ الحال
وقبل أن يرحلَ فرسانُ الدجى
باتت بلا سورٍ ولا سروال!

بلفاكيا . .(*)
تطارد الحروفَ في لوائحِ الأسماء
تطمس بالرصاص أطياف رسيس الذاكرة
خشيةَ أن يطغى عليها صاحبُ الإسراء!
شنغاريا . . تنخر فيها آفة أدهى من الجرب
هل يغفرُ الدانوب للطحالب المسعورة الأنياب؟
تمتصُّ من ضفافه النغمةَ
والنسمةَ
والنجيع
لكي تغذّي هدهدَ الخرافة
ويرسم القنّاصة المرتحلون سرباً من متحف الخزر
خرائطاً جديدة للنهب والإبادة؟!
فليحشرِ الأهلون في أقبية العلب
أو يطردوا خارج قوس البحر
والهلال
والمطر
خارج هذا الوطن الذاهل
حتى يمرُّ الجنرالُ السامريُّ زاهياً بجيشه الجرار
من سبها . . إلى بابل!
يا زمناً يلتهمُ التجارُ والرعاةُ فيه

(*) بعد رحيل الاشتراكية في بلغاريا امتد الاضطهاد إلى الأسماء الإسلامية .

لحمَ نبيهم . . قبل أن يساوموا على القطيع
ثمْ هانئا مستبشراً يا صاحبَ السعادة
سيُغسَلُ التاريخُ من جرائرِ العرب!

***

مورانيا . . جربانيا . . نوراميا
كفى عبثاً يا طيورَ الخرائبِ
يا فقهاءَ الجحيم
لن أبدِّدَ زيتي لكي تشبعَ المحرقة
إنَّ تحت الدخان وحوشاً مخالبُها دامية
وأنا أتوجسُ أن تركبَ الموجةَ التالية
ومهما تكشَّفَ لي من جنان النعيم
خلف هذا العجاج الوخيم
لن أقولَ مع الشامتين :
«مادتِ الأرضُ وانخسفت هيبةُ السلطنة
فيا منجلَ الشؤم . . يا شبحَ المطرقة
الرياحُ التي حاولت أن تعيدَ
ظلالَ القياصرةِ الأولين
وشتَّى فنونِ الجراحةِ والأدوية
ومكرَ النوادي لتستبدلَ الأحصنة
ويؤتى بباقي الطروح من الخاصرة
كلُّها سقطت . .
تحت موج انطلاق العبيد

سقط الطبُّ . . والطبلُ . . والطاغية!»
أنا من طينةٍ لا تبيحُ الشماتةَ بالميِّتين
(من يحبُّ التسلّي بلحمِ أخيه القتيل؟!)
ولكنَّني أنبشُ العالمَ المتخشّبَ
عن بذرةٍ حيةٍ مثل إشراقة الذاكرة :
ألم يعلموا أن طوطمَهم ساقطٌ من سنين؟
وسيلُ الرصاص الذي جرف الجثّةَ البالية
إلى حمأ الدود في وحشة الهاوية
لم يكن غير تذكرةٍ للبثور التي
عُبِّئت بالصديد
من دمامل هذا الزمان الهجين
***
وأنا لن أقول مع الشامتين :
«مورانيا . . مدرسة للصيرفيِّ الجائع المتخم
موعظة كبرى لمن يدركُ ما تضمره الساعة
خلف وجهها الرصين . .»
لكنني أنتظرُ الغيم الذي يجيء بالبلسم
وأشتهي صاعقةً تنقضُّ مثل القدر المحكم
وأرصد الريح التي تنسفهم
في كلِّ فجٍّ ماحقٍ مبهم

***

(عاصفةٌ شهيّةُ الألوان . .
- إياكم وخضراءَ الدمن!
عاصفة؟ . .
لا خوفَ من عواصفِ الدنيا
ولا حزَن
لأننا - وللعيونِ الساهراتِ الحمدُ -
في حِرزٍ رصاصيٍّ حريز
من صرعة الأحلام والأسئلة الهوجاء
والجنون
إعصارهم . .
لن يهتدي إلى حمى أبراجنا المنيعة
تحت جناح الغيب والقطران والأفيون
نحن هنا . . أشياء لا يمسها عدوى ولا عطب
نعيش في غيبوبة خارج ملك الله
خارج كل وهلة
تحتمل التغيير والزلل
إعصارهم . .
قد يستبيح ما وراء الأفق الساجي
ويستولي على زحل
لكنه أبعد ما يكون عن سواحل العرب!)
مورانيا . . لوبانيا . . صورانيا . .
خلِّي دمي يا آيةَ الجنون

مختبئاً كالسين في غلالة السكون
لابد من صنعا . . وإن طال السفر
إلى أقاصي جزر الطاعون
لا بد من مرسى لهذا النون

***

مورانيا . . يا ملك المجاعة الأرقم
لا عاصم اليوم من الجيل الذي
جرعته بحراً خرافياً من العلقم
نوماريا . . يا سرطان العسف
يا مستنقع الفساد
دنت مواعيد الجنى . .
وأشرعت مناجل الحصاد
تخطف عين الشمس
لا تخشى . . ولا ترحم
رونامیا . . هذا المخاض سرمد لا حد له
لكن شيئا داهما كالزلزلة
وخاطفا مثل انقضاض المقصلة
يصيح ملء الزمن الأبكم :
«لم يبق للباغي سوى جهنم!»

***

جربانيا . . مورانيا . . لوبانيا . .
تحرَّك النهرُ الذي وارَوْه

في غيابة المكتب والمصنع والمنجم
كان قطيعاً
-هكذا تصوروه!-
جاهزاً للسلخ والشواء
لكنه آثر أن يلقي على
أستاذه العلامة الملهم
بلاغة الدرس الذي
-هيهات!-
لا ينسى . . ولا يختتم

***

لوبانيا . . لوصانيا . . صورانيا . .
هذي فلسطين على الأبواب
تهزنا بكل ما في روحها من قوة الرجاء
وكل ما في حلم الثورة
من سواعد البأس
وأحجار السماء
تمطرنا بمارج من نار
يندحر الموت الذي حاق بنا
في ظلمات القمع والضغائن العشواء
ودون نهر الشهداء
يسقط الحصار
تحتضن الساحات في نهوضها الشعبي

أمواجاً وأمواجاً من الأحباب
فتزدهي مواسم العناق والعتاب
على مدى أفراحنا تزغرد الحناء
وتصدح الآفاق والقلوب
بالرايات
لا قهر بعد اليوم
لا ذل
ولا ظل لأعداء الحياة .

١٩٩٠/١/٢٤

عريسُ الرَّمَاد

زاهياً راح يمشي وراء الجنازةِ ،
ديكاً من القشِّ منتفخَ الريشِ بالأوسمة
يتملّى عروقَ الرجالِ التي اختنق الدم فيها
ويسخرُ من وطأةِ الشمسِ
والنعشُ فوق الرقاب
يشتهي أن يرى كل ما حوله
لوحة من دم وخراب
ويكتم في صدره ضحكة مبهمة

. . .

يعبر الموكب المخملي جسور المدينة
وأبراج غيلانها المتخمة
ويجتاز بؤس الضواحي
تاركاً خلفه قطط السوق والأقنعة
تجاهد كي تختلي بكنوز الخزينة
وتسطو على القوت والأمتعة

***

[في نقوش المرايا وراءك
في قاع خابية الذكريات
في الرسوم التي طمستها فصول الغبار
يرفع الطفل إصبعه بالسؤال
فتهوي على وجهه قبضة الكرم الأبوي
كصاعقة في شعاف الجبال
وتهوي على قدميه سياط التتار
وتشتد من حول أنفاسه حلقات الحصار . .
ولكن للموت حكمته البالغة
فسيفُ العدالةِ في كفِّه
لا يحابي أعزَّ الرجال]

***

وراء المدى تختفي العربات
ويبتلع الغيب حاشية العنكبوت
فيخطر في الأفق طيف البشارة
يطلق النهر فرحته مهرة حرة
في فضاء الربا والبيوت
عاشقاً لا يداري ذئاب الحمى
لا يخاف
وتنهل نجوى عصافيره المبدعة
عسلا شافيا في عروق الضفاف

***

في أعالي ثبير(*)
ربضت بانتظار وليمتّها ذئبةُ المقبرة
والرجال المساكين
أحصنة تصعد الشعب
مثقلة بالضنى والهجير
والعريس الرمادي يمشي الهوينى
عموداً من الثلج مستحضَراً من ليالي ثمود
همُّه كان أنْ سوف يدفنهم واحداً . . واحداً
ويعود
وفي يده صولجان الخلود
كان يمضي حريصاً على تاجهِ
ساهياً عن خطاه
ذاهلا عن أمور كثيرة
ربما فقد الحس والذاكرة
ولكن زوجاته وعشيقاته والجواري
يغمغمن خلف الستائر بين الأسى والتشفي :
« . . عاش دهراً بلا ذاكرة!»
وتغزل في رأسه موجة :
«ما هي الذاكرة؟»
فيغلي كأن سياطا من النار حزت قفاه :

(*) جبل قرب مكة . . والدلالة رمزية وليست جغرافية .

«قفوا واجلبوا كل من ضم في بيته
هذه الكلبة الفاجرة!»
ولكن صرخته هوَّمت وتلاشت
مع الموجة العابرة
وهو يمشي وراء جنازته . .
لا رجاء ولا ومضة من أمان
منذ أن لمح الصولجان
في يد الحاجب البهلوان

. . .

أنزلوا نعشه فتلوَّى
وعض على روحه خشية الغثيان
(للتراب هنا والحجارة رائحة لا تطاق)
صاح : «هاتوا قصوري
وهاتوا حدائقها كلها»
عبرت نسمة وأطارت بقايا
من الزبد المترامي على شفتيه
صاح : أين وزير البلاط؟
نائم ، يا لعين؟
أتغفل من دون إذني؟!»
طار من آخر التربة الخاوية
غراب وحط على كومة من عظام
فتحوا قبره . .

وبلا دمعة

وبلا آية . . أنزلوه

وفي كنف الدود والوحشة الضارية

تركوه

ينام وحيدا مع الأوسمة

وعاد الرجال إلى أهلهم بسلام .

١٩٩١/١١/١٧

زمن العنكبوت

-١-

عبثاً دماءُ المسجد الأقصى تنادينا

عبثاً تحرِّكُ نارَها فينا

يا ليتنا موتى

ليصوغَ أطفالُ الفدى أشلاءَنا

ورداً وأحجارا

يا ليتنا موتى . .

(واللي استحوا ماتوا!)

لا خوفَ بعد اليوم يا زمانَنا الأجرب

لا خوفَ من جوعٍ ولا فقرٍ ولا مرض

فأمنا الحنونُ أمريكا

ودون أي مِنَّةٍ ولا غرض

تسد ما نحتاجه بالعملةِ الصعبة

وإن يكن معتصراً

من دمنا وغدنا الأصعب

فالغايةُ النبيلة

- ولْيفرشوا دروبَها بجثث الأطفال-

لا بدَّ أن تبرر الوسيلة!

-٣-

هل أفرخت يمامةُ الدارِ
في ظل هذا الدارع الضاري؟
قلبي على هديلها راعفٌ
ما بين قنّاصٍ وسمسار

. . .

راعني في الأفق الهنديِّ نهرٌ من دمٍ آتٍ
وداست كبرياءَ الروحِ
أمواجُ سعارٍ أطلسيّ
عالم يغلي بأحقاد المغوليِّينَ
قطعانُ وحوشٍ سُلِّحت أنيابُها البيضُ
بدرعٍ نوويّ
والأهالي ذاهلون
ومخاتير القرى هاجوا وماجوا
وتمادوا بجدالٍ عبثيّ
فُرجةٌ للعالم المأزوم . . فليضحكْ علينا
(نحن عشاقَ الديوك العنتريّة)
وليُزِحْ أطفالَنا من دربه مستنفرا
كل ما يملك من أهوالِ آلاتِ جهنَّم
فدماءُ العربي

لم تزل ماء صديدياً
ولن ترقى إلى حاشيةِ الزيتِ الخرافيِّ المُفدَّى
قبل آلاف السنين .

-٤-

في دارنا دجاجةٌ منتوفةُ الجناح
(كان اسمَها حامي الوطن!)
تبيض - كي يستأجروا أنيابَها-
شلاَّلَ دولارات
لكنها تجهل أن العرشَ والشرعَ معاً
في عدوةِ الخليج
تشكَّلا من معدنٍ واحد
وظل حبلُ الشِّعرِ مفتولاً على الأعناق .

-٥-

ها هنا نحن في الزمن العنكبوت
كل حلم علقنا به ذات صيف
صحا يتملى بهاء انكساراته . . ويموت
والرغيف المعلق في حلمة الغيم
ينذرنا بالسكوت

الشوارع تلتمُّ خوف انفجار القبور بسكانها
وتسيخ البيوت
***
يا قطيع الكلاب انتظر عظمة دسمة
سوف تهمي عليك معلَّبةً ، آخرَ الليلِ
من شرفةِ العنكبوت
تَسلَّقْ .. وطاوِلْ بها قبَّةَ الملكوت
ولا تنسَ أن تسمِّيَها «مكرمة»!

-٦-
كوكبٌ – ريشةٌ في مهبٍّ الرياح
أمةٌ– وطنٌ– بيدرٌ مستباح
مدينةُ أطفالك الزغبِ
دارُ الصبا والمواعيدِ
غرفةُ نومكَ ..
لينُ الفراش ورائحةُ الدفءِ . .
حتى الوسادةُ في صمتها واستكانتها . .
فاكهةٌ مستباحة
كيف تغفو؟
وكيف تعيشُ وتحلمُ؟
كيف تعاشرُ أنثاك؟ . .
تُخصَى . . وتنسلُ

في زمنٍ مستباح؟!
كيف تسأل أو تتساءلُ
كيف تفكّرُ؟
كيف تحاورُ في لغةٍ مستباحة؟!

-٧-

يا مؤمنون خبّئوا إيمانَكم
أبعد مما تصل العيون
يا ساخطون حاذروا أن تكشفوا أوراقكم
وخاتلوا دائرةَ الظنون
يقال إن الله - جل وعلا-
مطالَبٌ أن يستقيل
ما دام لا يصفح عن مجازر الأطفال
في القدس ، في جنين ، في غزة والخليل
لأنَّ أمريكا
حاضنةَ السفلس والطاعون
تريد أن تكون ، دون صاحب ولا شريك
إلهةَ العالم
ولتغرقِ الأرضُ التي نطعمُها أجسادَنا
ولتغرقِ الكواكبُ المجاورة
بالدمِ والأفيون!

-٨-

شدّي على الأوجاعِ ، يا أمتي
وانتزعي الحلمَ بإصرار
موجُ الصليبيّينَ يجتاحنا
معربداً في شكلِ دولار
رائحةُ القطرانِ في زحفه
سمٌّ يعرّي ذلّنا العاري .

***

أو . . ها . . ليـ . . ليش!
يا ألفَ أهلاً ، ألفَ سهلاً ، ألفَ مرحبا
بموكبِ العرسِ الجديد
يغشى حمانا زاهياً . .
مدجّجاً بالنارِ والحديد
يا باعةَ الكازِ ، هلا . .
يا مرحباً بالسادةِ الرعاة
أهلاً بقطعانِ البقر
بيوتُنا مفتوحةٌ لكم
قلوبُنا مفتوحةٌ لكم
حتى قبورُ أنبيائنا مفتوحةٌ لكم!

-٩-

هذه رايتي . . كفني
وفلسطينُ ، كلُّ فلسطينَ في قهرِها
وجلالِ انتفاضتِها . . وطني
أرضُها من دم الشهداء
والسماوَاتُ ملأى بأرواحهم
وقلوبُ الأحبَّة
تبارك وحدتنا وهوانا
لكي يستمر الغناء
وأبحث عن حجر نيزك
أستضيء به آخر العمر
رؤياه تشبه قلبي
- إذا غسلت لجمة الصبح أشجانه-
ونيرانه تتساءل عن شجر العائلات اللصوص
فانطلق وتهلل لموج الشوارع
يصحو وينهض
يملي إرادته في دروب الكرامة
يا زمني
من تراث المخيم أرفع كوفيتي
راية النصر . . أو كفني .

العاشق.. وسيدة الياسمين

إلى غالب هلسا . .

كان يحلم أن يكتب رواية عن دمشق ،

لكنها ما تزال تنتظرا

-١-

شهقة شهقةً كاختلاج الصدى
كتلاشي أريج الزنابق
يرحل الأصدقاء القدامى
فجأةً . .
كطيور الخريف التي باكرتها
سهام الصواعق
فجأة يرحلون
وتبقى كفزّاعة الحقل ، شيخَ المناحات
متشحاً بالأسى والجنون
لترحل يوماً رحيل اليتامى
شبحاً موغلاً ، قبل موعده ،
في عباب المنون .

-٢-

كهوف كهوفٌ وأدمغةٌ تحفٌ
من بقايا صخور الجليد

تحاصر وردي أحلامنا
في شتات القرى والعواصم
فمن كان مشتعلا روحه
بجنون الرؤى وابتكار الملاحم
فليجازف بعيداً على صهوة الموج
«كيشوت» حلم جديد
وإن سلبته الطواحين أوسمة النصر
فليرتشف ما تبقى من الكأس
بين خيام الصعيد

***

في غمار المعارك بين الخماسين والأسئلة
يطرد العاشق - الطفل خوف انتشار الزلازل
يتأبط أشواقه وهواجسه كفريك السنابل
يقول «وداعاً» لأقبية الرمل
داخل واحات «طيبة»
فتزهر في ليل بيروت
شرفة حب وساحة حرب
مسورة برماد الوجوه الكئيبة .

-٣-

كان طفلاً كبيراً كبيراً
تجاوز خمسين مجزرة

واكتوى قلبه بصقيع المنافي
عشية ألقى بكرسيه الخشبي العتيق
وسجادة من تراث الغجر
على شرفة الياسمين الدمشقي
في باب توما
تمادى به وجع الذاكرة
فاحتمى بالسهر
آنست خوفه نسمات ملونة
من خيال صديق
راح يغزلها بين أنفاسه ولهاث القلم
تاركاً قلبه محبرة
لاختزان الألم

***

وعلى ضفة الحلم في بردى
هوى مثقلاً بجراحات بيروت
مختمراً برؤى القاهرة .

-٤-

وتحتار بيروت
كيف تداوي جراحاتها المزمنات
بجرح جديد
فلم يبق بعد الخروج إلى البحر

لم يبق غير اللجوء إلى البادية
وفي البال تزهو ليالي عدن
كميناء حب قديم
ولا وقت للذكريات
فقد تعب القلب من حلمه
واستراح
وبغداد في رحلة التيه
تسكره . . ثم توقظه وتحاوره
بوجوه ثلاثة
فيهبط سلمها باتجاه الدمار
وطرطوس في عرس نيسان
مجلوّة بالندى والأقاح
وأرواد - مملكة العشق والصبوات
تبتغيه أميرا لحكمتها ، فارساً للحوار
وعشتار في حلة البحر
لائبة مثل مهر حبيس
تفيض بأشواقها ومفاتنها
لاحتضان العريس
ولكنه غادر الشام طيفاً من الوجد
في غيمة من أثير
إلى أمه «آمنة»
تظلله ، خفية ، من سموم الهجير

وتحميه من شرك المدن الآسنة .

-٥-

أقول لسيدة الياسمين الجريح
دعينا قليلاً من الذكريات البواكي
وفاجعة المسرح العربيّ
في مرايا «كليلة ودمنة»
فأرى طيفه عابراً كرفيف الشعاع
مترع الروح بالوجع المريميّ
فأعاتبه مشفقا : «أفلا تستريح؟!»

***

نيزك هل في ليل صحرائنا
لا يخاف احتراق الفراش
ولا ينتمي لإله الضياع
جناحاه «ريم وعمار» في عشقه الموسمي
وفي أمسيات الحنان
وأشهى موائدنا إذ يطول السفر
فتة أشربت بالتوابل في دارة الحلبي
ثريد الكوارع -يا بركات الحواري العتيقة!-
نعمة . .
أين منها خزائن كسرى وقيصر
والتاج والصولجان؟!

-٦-

في طقوس انفراط العشيّات
عند اختلاط غيوم الأسى
وانطفاء الرحيق
ترشح الهمهمات المريبة بين خدور اليمام
بأن الفتى قتلته امرأة
كجنية من رؤى شهرزاد
كان يضنى من السهد
حتى يعري أسرارها
لفضول الرياح الطليق
ولكن «وضّاح» لم يكتشف
ما وراء صناديق «أم البنين»
ما أحس برائحة النار
خلف دموع الغمام
ولا أدرك البشر في غلمة الجسد المرمري
(من يماري أن لله جنودا من عسل؟!)
ومن قبله سحرتنا فرادى
ومن بعده أحرقتنا جميعا
وكانت حروف اسمها في قلوب الضحايا
تباشير مملكة من دم وشقيق .

-٧-

ها هو الآن على ناصية الجسر الأخير
يرصد التاريخ من خارجه
يصعق من رهبة ما يجري
على مسرحه الدامي
ومن هول الشقاء البشري
تبدأ الأسئلة العطشى
بإطلاق نوافير السعير
كيف يبني أمةً من ورم التاريخ . .
أو من رغوة الحلم؟
ويبني لغة عصرية
من حطب أو من دخان؟!
أرضه من ورق . . مادت به
مثلما ضاقت به شمس الوطن
كيف يختار بلاداً أرضها أقوى . .
وينمو شعبه فيها كغاب السنديان؟

***

وحشة ، دوامة الغربة لا ترحم
ليل عربي يتمطى . .
خلف أسوار الزمن
والفتى تخطفه ريح النوى
ينكسر القلب وحيدا

نجمة تعبر من نافذة المشفى
وتنسل بعيداً
لا يد تومي بمنديل وداع
لا فم يشهق «آه»!
لا مقاهي بردى تدري
ولا دار الحنان
تمسك الوقت الذي أفلت من أجفانها الوسنى
وضاع
غفلت حتى عيون الأهل عن مسح الألم
وطوت أصحابه غاشية الخمر
وخضراء الدمن
وحده . . كان وراء الليل
يرنو بتحد وازدراء للكفن
وحده كان القلم .

أحاديث العشيات

مع سامي عطفة . . بعد رحيله .

وليست عشيات الحمى برواجع
إليك . . ولكن خلّ عينيك تدمعا

«الصمة القشيري»

بهدوء جليل كصمت البحار
عاش أوجاعه بيننا . .
وكبا فجأة كانطفاء الفتيل
جبلا من نبوغ ومكرمة واصطبار
مثقلا بهموم الدعاة الكبار
ولكنه لم يتمتم بـ (آخ)
فكيف قسا قلبه وارتضى بالرحيل
تاركاً ، خلفه ثلة من فراخ؟!

-١-

بيته . .
يسمو بنا القبوُ

ويدنو من هلال المئذنة

إنه مازال بالإيجار، لا تعجبْ

أخونا لم يسجِّلْ باسمه الغالي

ولو كوخا

ولا هوَّم في أحلامه حيُّ القصور

فارتدع يا صاحبَ النسبةِ(*)

لا تلمس جراح الأفئدة

وانصرفْ عن واحة الأحبابِ

فالأسواق تدعوك لتكديس بقايا الأرصدة

لم يكن سامي ولا كنا شغوفين

كما أنت بقتل الأحصنة

فالدراري لم تكن يوماً صديقاً

للسباخ المنتنة

عشقه للأرض باقٍ في أصول السنديان

وله من سعة الأفق

جناح النور يهفو

حاضنا كل البرايا والعصور

حاصرته سحب القهر بألوان المراراتِ

وفازت في الرهان

فهوى مدَّثِّراً في صمته . .

(*) إشارة إلى بعض أصحاب النعم المستحدثة الذين كان الفقيد يعرفهم .

نخلة ألوت بها عاصفة الرمل
وخانتها الجذور
والدنى من حوله تغلي
طبولاً وأهازيجَ وأجراساً
بحجم المهرجان
ما له لم يستجب للفرح المنقوع
في تلك القدور؟
أيخون القلب إلفه؟
بعد أن عاش مليئاً بالوعود الخضر :
من معرفة النفس . . إلى حلم الفدائي
ومن تنشئة الطفل . . إلى هم العبور .

-٢-

نلتقي في شرفة الليل على فنجان قهوة
تبدأ الرحلة من حلم أبي ذر
ويزهو عنفوان الحلم في سيف الخوارج
وعلى سجادة الأفق المدمّى
يتهادى طيف عروة
حاملاً في دمه المهدور مأساة العدالة
أمة مالت بها الأيام . .
وانهارت صروح ومعارج
واستباحوا كأسها حتى الثمالة

في صباها أبدعت كنزاً يضيء الكون
لكن علوج النفط باعوه
فلم يبق لنا غير التكايا والقبور
هات حدثنا عن الزنج . .
وعن روما . . وأمواج العبيد
ما الذي خبأت في قلبك
حتى انهد مصعوقا
فما يقوى على حمل المزيد
صمتنا طال . .
فهل من حرج أن نستعيد الأسئلة؟
ما الذي حوَّشت من فكر المعريِّ؟
ومن حرية المعتزلة؟
ما الذي استخلصت من فلسفة الإغريق؟
أو حكمة إخوان الصفاء؟
كوب سم في يدي سقراط؟
أم خنجر غدر في بلاط الخلفاء؟!

-٣-

كنت في غربتنا
أنس اللقاءات وقنديل السمر
باكراً فارقتنا . . لكن ذكراك الحبيبة
لم تزل ملء عروق الغار والطيون

ترنو لمواعيد المطر
موحش مجلسنا بعدك . . يغشاه الضجر
شاينا دفلى ، نسيمات العشايا كالأفاعي
والأحباء . . وجوه من حجر
بردى أقفر واديه . .
فمن مثلك يكسو بالأحاديث
فراغ الجمعة؟
قدوة كنت لنا . .
لا تقبل الإبحار في مستنقع البغي
ولا ترضى بلبس الأقنعة
فلماذا غبتَ عن موعدنا في ظلّةِ المقهى
ولم تترك خبر؟
يا أبا أحمد لا تعتب على الخلان
إن قل الوفاء
علمتنا لغة الموت الفلسطيني
أن نستقبل البلوى كما العرس
فلا نأسى طويلاً لرحيل الأصدقاء
يدرج الموت أليفاً بيننا
داخلا في كسرة الخبز البهيميِّ
وفي هسهسة الماء
وأنفاس الهواء
يرتدي لجمة داوود

وينسلُّ إلى غرف النوم ،
دم الأطفال ، أكباد النساء
ربما يكمن في إضمامة الورد
وأقراص الدواء .

-٤-

يعجب الراصد كم يخطف من أزهارنا
موت الفجاءة؟
ولماذا يتهاوى شجر الأحباب في عز الربيع؟
وأنا أعجبُ أنَّا لم نمتْ بعد . .
كأن الموت آخانا . .
لكي نبقى شهوداً في القطيع
ربما لم نك أحياء تماما . .
ربما مغمي علينا أو سكارى
ربما لم نك أمواتا . . ولا حتى سكارى
ربما متنا طويلاً دون أن نُنعى . .
ولكنا نسينا أن نوارى
قل لنا
كيف استطعت الموت فورا وجهارا؟
هكذا تذوي الرياحين ويبقى في روابيها فتيت من أريج
موتنا من معدن آخر . .
يفري في الحشا

يعتصر الروح اعتصارا
بومة تملأ وجه الساعة الدوار ، تحيا معنا
منذ اختلاج النطفة العذراء في قاع الخليج
نصحب الحمى من المهد . .
ولا ندري متى ندخل طور الهذيان
كل شيء ، كل مخلوق . . مريب حولنا
يا أبا أحمد هذا العالم الوحشي
منفى ، غابة ، ليس لنا
نحتمي من موتنا بالحب أحياناً . .
ولكن لا تسل في أي طقس وثني
يبلغ الثلج حدود الغليان
تارة نبتكر الفن سلاحا لابتدار المعركة
وعلى أرواحنا تشتد كي تسكتنا خنقاً
حبال الشبكة

***

كلما صادفت خلا
وتواعدنا على كأس وأفق للحوار
لفنا غيم من الوجد
على من غاب من أحبابنا
وتراءى شبح الموت غراباً بيننا :
«هذه آخر لقيا»
من يلوم الموجة العشواء

إن ألقت على الشط بآلاف المحار؟!

-٥-

نحن أضيافك يا سامي كما عوّدتنا . .
لم نخن عهدك ، لكننا تآمرنا
لكي نجعل من ذكراك ضيف الأمسية
نحن جسر النكبات السود ، جيل التضحية
كان بالأمس لنا باقة أحلام
ولكنا أضعناها ، وأدناها بحقد جاهلي
واكتفينا باجترار الذكريات
كان من أحلامنا أن نزرع الرايات
من يافا إلى الأقصى وبيت الناصري
كان من أحلامنا
أن يتسامى وطن الحق
على كل الضواري والضغائن
كان من أحلامنا
أن يتعافى جسد الأمة
من كل الشظايا والندوب
كان من أحلامنا أن ننشر العدل على كل البيوت
كان من أحلامنا
أن نطلق الحرية الزهراء في كل الدروب
كان يا ما كان . .

لم يبق لنا
غير أطياف من الذكرى ،
فراشات خريف بين فكي عنكبوت!

-٦-

نحن سرب يلتقي في حنوة الغار مع العشاق
لكننا غداة الفتح لم نركن إلى بيت تجاري
ولم نأمن أذاه
موجع أن يتخلّى النهرُ عن ينبوعه الصافي
ويختارَ مصباً آسنَ التربةِ
موبوء المياه
كيف تحيا ، يا أبا أحمد ، في عصر
أقام الليل سلطانا على مملكة الشمس
وصار النفط سلطاناً على الدين الحنيف؟
هاجر الأنصار ملفوفين بالخيبات . .
واجتاح المرابون بساتين المدينة
كيف تحيا بين تجار الدماء
. . ويتامى يتشهّوْن الرغيف؟!
يا صديقي ، بعد إحراق المواني
ما الذي تفعله الجرذان في بحر المجاعة
غير إغراق السفينة؟

-٧-

عشق العالم يستجلي خفاياه طوال الليلِ
حتى أصبح القبو الصغير
عالما رحبا مليئا بكنوز المعرفة
فمضى محتضنا عالمه البيتيَّ والكونيَّ
في حشرجة القلب الكبير

***

يا أبا أحمد
من ينسى سماء البحر في عينيك
والقدموس عرزال يضم الروح
مرسوم على شال القمر؟
هات حدثنا عن الشعر الذي
يشدو بآلاء الحجر
غافلاً عن محنة الأم
وعن فاجعها اليوميِّ
عن أغلى طموحات الشباب
تنتهي أجسادهم منثورة كالقمح
في حضن التراب
- يملأ الغليون بالتبغ الخمير
ويغشّي أفق عينيه رفيف من دخان
ثم يلقي كلمة كالبرق في لج السحاب :
«شعركم يا صاحبي ، خمر . . ولكن

مزجت بالقطران!
طفلة تلهو على الشاطئ بالأصداف
لا تدرك ما يرتجُّ في غور العباب!»
هات حدث عن خريف البطريرك
«وطن صحراء ، لم أختره صحراء بنفسي
إنما أعطوه لي في هذه الحال الزريَّة . .»
من يهزُّ الزمنَ الراكد في تلك الكهوف الحجريَّة؟
قلت يوماً : «إنه الحبُّ . .» ولكنْ
من يحب العدم الرابض ملء الأبدية؟!
لا تسلْ كيف يعيش الجنرالُ الفحلُ
قرنين وثلث القرن
في جوٍّ خرافيٍّ معبًّا بالصديد
ويعيد الزمن الساجي إلى عصر الجليد
ثم يخبو ميتا ، قبل مجيء الموت ،
جذعاً نخراً ، دون وداع
هكذا تقتلع الأعشاب أحجار القلاع!

-٨-

يا صديق الأمل المغدور
لا طاقة للشعر بإخفاء تباريح الغروب
ليس في مائدة الخنساء
ما يغني عزاء الروح

أو يشفي جراحات القلوب
وجدنا جمر اشتهاء الأرض للأمطار
والغيم الذي شلناه في الأحداق
لا يكفي لإرواء السهوب
يا صديقي ، نحن مشتاقون . .
هل حط بك الشوق على صدر فلسطين
ولم تثمر وعود الزيزفون؟!
تاركا أصحابك الباقين نهباً لاحتمالات الجنون
أين ألقت بك ريح الغيبِ؟
في أي فلك؟
ما تعوَّدنا على طول الغياب
خنقتنا غربةُ الروحِ
ولا ندري متى تنكشف الغمَّةُ
لا ندري متى ترحل عن أعيننا الرمداء
أسرابُ الذباب!
وأرى من حقنا أن نسألك :
كيف تجفونا وتنسانا . .
ولم تذكر لنا من زعَّلك؟
أيُّ ريح أخرت مركبك الميمون عن موعدنا؟
أي موج حوَّلك؟
أيُّ خسرانٍ يصيبُ القدرَ الأعمى
ترى ، لو أمهلك؟!

يا أبا أحمد ، مشتاقون . .
مشتاقون حتى سكرات الموتِ
مشتاقون لك
لا تسلنا كيف نحيا . . أو نموت
نحن نهر ينتمي مثلك للنبع الأصيل
ربما نُهرَسُ تحت العجلاتِ الهوجِ
لكنْ لن نموت
قبل أن نفرشَ دربَ القدسِ
دربَ الجلجلة
برماد المرحلة
ونرى جيل المنافي
عائدا يبني مغانيه القديمة
بين حيفا والجليل
فهنيئاً لك أن أبعدت
عن مسرحنا الدامي
ولم تشهد ختام المهزلة .

تشرين الثاني – ١٩٩٢

أسئلة لم تكتمل

إلى محمد عمران . . .

١- كنا معا . .

كنا معا . . وفي حمى ضلوعنا
ترتع أسرب من اليمام
وفي ليالي بوحنا
يدوخ أبهى ياسمين الشام
ننسج للعشاق من نسائم البحار
بيارق الحرية
نبني معا مملكة الأحلام
ثم ارتحلنا لاكتشاف كوكب الجنون
قيثارتي تهشمت ألحانها
في نشرة الأخبار
ونايه تقتبس النار التي
تكنها جوانح الزيتون
قلبي غدا كعوسج القفار
وظل في هديله أندى من الغمام
لكن ريحا كالتجلي خطفت قلبي
وحطت في جبال الريح

وصاحبي تسكنه أوجاعه
يمشي على الجمر ولا يبالي
يوغل في صوفية الخمر
ويستجلي خفايا رقة الماء
وأسرار الهوى المكنون
بين النحل والرحيق
من زيته أصفى منارات البحار
تستمد وهجها
وترتوي قبائل الدفلى
وأشواك الطريق
لكنه يمضي . . ولا يبالي
الشاعر المسكون
بالخبز والضياء والحرية
يسمو على أوجاعه
يبحر في مجاهل العصبور
منشطرا ما بين وعد وانخطاف وجنون
كأنه النسغ الذي يجري عميقاً في الجذور
يلون التيجان والأكمام
كأنه رسالة السماء
إشراقة الكلمة في معارك الحرية
أمام طغيان قوى الظلام .

- آب ١٩٩٦

٢ - بعد الرحيل

وجع كإسفين الغراب يشق تاج القلب
إعصار يطير البحر خوفاً من سنابك زحفه
ويلوذ بالشطآن
ويدوخ في أقصى كهوف النفس
موج الأسئلة :
من أي ليل زئبقي خانق
تتدفق الغربان؟
من يستطيع قراءة الأجل المعلق
في بروج الغيب؟
هل من راصد يجلو لنا
ما تضمر الساعة؟
فلك خرافي من الظلمات ،
غابات من الألغاز ،
أسئلة وأسئلة تشع وتختفي عبثاً
على شرفات أسئلة جديدة
وتغوص في حمى هواجسها بلا قاع

أميرتنا . . يتيمتنا القصيدة

***

رويداً . . يا أبا الوعد
أترحل كالندى في زعفران الصبح دون وداع؟
كأنك لم تكن فينا أمير البوح
نجم المنتدى ، قيثارة الوجد
ركام من سديم الغيب يفصل بيننا . .
ويضاعف الأسوار
فمن يقوى على تصديق هذي اللعبة السمجة؟
ومن يقوى على تكذيبها في اللحظة الحرجة؟
ومن يقوى على إعراب ما في لوحها الزيتيِّ
من أسرار؟
مرايا من دم ورماد
غيوم مثقلات بالضنى والضيق
طلاسم مالها أفق
تظل الروح في أمدائها طفلا
حسير الطرف شبه غريق

***

ويسأل قلبي طيور الخريف :
لمن ينتمي عاشق السنديان
لأوجاعه
أم لوجه الحبيبة؟

أم لأرض تناثر أطفالها
تحت قوس النجوم؟
أبا الوعد ، أطلق حضورك
في كل حرفٍ جميلٍ
وفي شهقات البراعمِ
في نسمات العشايا على شرفة البحر
بين نزيف الدوالي
وفي نفحات الطيوب
في حضورك ما من شجيٍّ
يطيق الرثاء
وليس لنا في النوى من عزاء
ولكن نهر الأسى موغل في القلوب

***

أبا الوعد ، مشوارنا ما اكتمل
فلسطين كانت لنا حلماً
من سهادٍ وقهرٍ
ولمّا تزل
والرغيفُ المتوّج بالزيتِ والزعترِ الجبليّ
يروغ ويطفرُ من عتباتِ المدارسِ والدورِ
يُغرِقُنا بالخجل
ورايتنا يوم وشّيتها بحروفِ الضياء
وباركتَ حريّةً

لا يليق بها سوى الشهداء
يومها . . لم تكن راغباً بالرحيل
النبيذ النواسيُّ أشهى موائدك الوارفة
وجنيَّةُ الشعرِ ظلت صفيَّتُك الخاطفة
لم تكن لتبيحَ السباحةَ في البِرَكِ الموحلة
وروحك لم تفقد البوصلة
إلى ملكوت السنا والصفاء
فكيف رحلت إذاً دفعة واحدة؟
ونحن نوقِّع أعمارَنا بألوفِ الشظايا
ونرحل في كلِّ يومٍ شظايا

***

حدِّق معي ، حدِّق هناك
قمر يغادر عدوة الوادي
ويدخل في المحاق
هل جاء وقتٌ نعبر الجسرَ الأخيرَ
بلا وداع؟
مهلا . . فلسنا في سباق
للجسر قاعدتان
من دفءٍ سماويٍّ . .
وطين :
رحم هنا . .
قبر هناك

مهلا . . فقد طاب اللقاءُ
ولا مناص من الفراق
فلمَ التعجُّل والسباق؟
وتقول لي : ثمنُ التخطِّي
ثمنُ اجتراح المستحيل
جيل الضحايا . .
هل يكون سواه جسرُ المرحلة؟
وأقول : دعني أملأ المصباح من زيت المعرِّي
وأعد كوخي قرب زاوية الخطيئة
دون التماس من قريش
وأقول : كم أرهقت قلبي
في ضباب الأسئلة؟

***

كيف نأتي ونرحل
من غيهبٍ دافئٍ مخمليّ
إلى غيهب من صقيع
قصة تتسلى بنا من قديم الزمان
وفي سكرة الليل
بين اشتعال الحشا
واختناق الحوار
تفتح الهند بوابة للعزاء
نلتقي في ضيافة طاغور

أسئلة طعمت بالبهار
نلوذ بأفياء بستانه كطيور المنافي
ونقطف ما نشتهي من ثمار

***

يا صديق الفراشات والعشب والشهب العاثرة
هل وجدت الأمان الذي تتشهاه
في جنة الوالدة؟
هات حدث ضيوفك عن هذه الصفقة الخاسرة
أكانت تسمى «حياة»؟
تودع الأم أطفالها تحت ريش الغمام
وتوغل في الزرقة السادرة
ثم يمضون في إثرها
حبة . . حبة من ندى أو رغام
فتات خيوط من اللعبة الدائرة
هاتِ حدِّث ولا تكترث بالأفاعي
تجدد أعراسها في بروج الحمام
هاتِ حدِّث . .
عسى أن تعانق أرواحنا في حضورك
سدرة المنتهى
ألق اللغة الشاعرة
فما أنا إلا كما أنت يا صاحبي
أشتهي أن أنام طويلاً

على صدر أمي
بلا مقرئ أو بخور
أتمنحني كرفاق الصبا
فسحة في جوارك؟
أتأذن لي بالعبور؟!

- تشرين ١٩٩٧

أغنيات.. لأعراس الجنوب

-١-

الدجى . . وسعار الخنازير ،
رائحة الدم ، هول الدمار
وأطياف نهر من الذكريات
نلوذ بها كي تخفف عنا غيوم الحصار
وريحانة القلب شهد الحياة
تجدد لي عرسها في ربيع الجنوب
وتحيي مآثر جدتها في رحاب الفرات

***

الدجى يستدير بنا خانقاً
كسموم الضحى
والسلام الخليجي يدنو
أشد وبالا وتهلكة من جميع الحروب
وأعصابنا تقطع العمر بين فكي رحى
والدروب مغلقة بحراب القبائل
أو بالكلاب
ولا نجم في الأفق ، لا نسمة من رجاء

ولا راحة من عذاب
لو يجيء الردى بغتة . . لاسترحنا
ولكنه يتناسى ضحاياه
حتى يطول اجترار الشقاء
أين نمضي؟
وكيف نعيش ونعشق؟
ولا موت يحنو علينا . . ولا مقبرة
سترضى بستر جرائرنا في التراب
أمة . . صيتها في السحاب
ونحن ، بنيها اليتامى ،
شظايا لقى لم نغادر بطون الحفر
وطيور الجحيم التي فقّست في ضفاف الخزر
تستبيح ينابيعنا
وتسمم أجواءنا
وتسد البحار
ولا من ملاك يطير بنا خارج الجزرة
أمة . . أدمنت في غياب النهى والعدالةِ
ذلَّ الغياب
كل ظل يذكّرها بالتتار
كل ريح تفجّر عاصفةً من دوار
وأعداؤها أكلوا لحم أبنائها
ورفات الجدود

ولن يكتفوا بابتلاع صخور القمر
سلاماً على كوكب كان
قبل اختراع المنافي
وقبل انهيار السدود
واحة للبشر .

-٢-

هارباً من دبقِ العيش البهيميِّ
ومن قيء التكايا
وخفافيش القبور
حاملاً ملء حنين الروح
أشجان المنافي
والتياعات العصور
مدنفاً ألقي بأوجاعي وأحلامي . .
على أكتاف صور

***

الدجى يبتلع الآفاق والأعماق
من صومعة الليزر في «ناسا»
إلى خيمة زرقاء اليمامة
وموالي مدن الرقِّ
ملوك القطران
يسلخون الليل غرقى

في بحيرات المرايا والعطور
ويعيدون اكتشاف الجوهر المكنون
في لج الغواني والدنان
وأنا أنسلُّ من جلدي كهنديٍّ
رأى في مهرجان النار جسراً للعبور
بعدما ضيَّعتُ دربي
وأضاعتني أكاذيبُ الدروب
أمتي ، يا أمنا . . لو يملك العاشق حلمه
لافتديناها كما يفعل عشاق الجنوب
(أمتي . . كان لنا في كتب التاريخ أمة
ثم باعوها بكيل من قروش
واستباحوا لحمها الدامي
لإتخام الكروش
واستعاضوا عن بنيها وأمانيها
بأشباهِ رجالٍ فوق أشباه عروش
وإذا داهمهم طيرٌ غريبٌ . .
وطغى سيلُ الخطوب
زعقوا : «يا عمَّنا سام ، أغثنا!»
فيوافيهم بأصناف البغايا والجيوش)
أمتي عند ائتلاق الذاكرة
بحر آيات من الرحمة والحبِّ
وأبراج منارات

تصون الحق من بدرٍ إلى حطينَ
فردوسٌ محاطٌ برماح السنديان
رايةٌ غمّسها في قلبه معروفُ سعد
وأضاءتها جراحُ الموسويّ
فانتشت في كل نفس ثائرة
وازدهت في كل وعد
وأنا أرنو إلى لألائها يخفق في شمس الجنوب

كلما ودّعت في الدرب شهيدا
هل مصباح جديد فوق أعراف الجبال
وإذا أمعنت في ليل السُّرى
طالعني وجه بلال[1]
قمراً يصعد محفوفاً بأعراس الدماء
من هنا . . أبدأ تاريخي بفجر
رسمته أغنيات الشهداء
لوحة وردية الأطياف في صدر السماء
فاغسلي روحيَ في مرآتك الخضراء
يا ثورة أحبابي . . يا نار الجنوب .

---

(١) بلال فحص من شهداء الجنوب .

-٣-

يا بن أمي
يا يتيماً تنهش الغربان لحمه
أنت وعل نازف في غابة الدفلى
ومن حولك آلاف الذئاب الأطلسية
عربي أنت زنجي وهندي
مليء بالأحاجي والغيوب
وهمو آتون من مخبر «فاوست»
إلى حيث ليالي شهرزاد
شبكت أعراسها الحمر بمنديل البكارة
عربيٌّ أنت لا تملك إلا الروح
سكرى بالمرارة
وهمو آلهةُ العصر وحرّاسُ الحضارة
يا بن أمي في فلسطين وفي وهج الجنوب
عربيٌّ أنت لا تعرف آداب الحوار
لغة من زئبقٍ
مدهونة الأقلام بالزيت الخليجيِّ
ترى العالم ملكا هَمَيونياً
لرعيان البقر
نخلة شاخت وجُنّت
بين حيطان المقاهي
وأضاليل الخلاص المنتظر

وأنا أسعى لتجديد صباها
بين أشبال فلسطين وفرسان الجنوب
يا بن أمي
رصرص الملحَ على الجرحِ
ولا تخشَ من الثعبان إنْ أطلق سمَّه
أنت منذور لتحرير فلسطين
وتطهير الجنوب
أنت مبعوث لكي توقظ أمَّة .

-٤-

غيمة في الأفق رقطاء
كتيجان الجزيرة
تدّعي أن تقاليد الكفاح الوطنيّ
في سبيل الأرض إرث بربريّ
وعلينا أن نرى إشراقة النجم الجديد
في دياجير المدار العالمي
ونواري في حنايانا الكسيرة
كل أسباب الحروب

. . .

عجباً كيف يزور النوم أجفان الأعاريب
وأطفالُ الجنوب
سرق الأعداء منهم

نعمة النوم وأنداء الأمان
أترى مات بنا الحس وغطّته الطحالب؟
لو شعرنا بعذاب الطين تحت المارج الضاري
وأدركنا تباريح البيوت
لو تحسَّسنا أنين السمك المذعور
في أشداق حوت
لو نعاني وجع العشب وأحزان الرماد
لو نعي أسئلة الأطفال في ليل السهاد
لالتقينا أمة واحدة كالبحرِ
في ساح الجنوب
أترانا لم نصل قاع التردّي؟
أم ترى لم نستفد من كل ما مر؟
ومن يقوى على كشف الحساب؟!
هل قضى طاغوتهم سراً
بإحراق الجنوب؟
جاعلا من بيته الأبيض - وكر العنكبوت
بؤرة للقتل والإرهاب والسلم الكذوب؟!
ولماذا لوّحت جيهان بالورد
لأركان الحروب؟
أتراها لم تكن في موسم الموت
ولم تشهد ضحاياه الأخيرة؟
يا بن أمي

أنت في حضرة أمريكا :
تأدَّبْ . . وتعلَّمْ
كيف تنسى أرضك الأمَّ وميراثَ الجدود
ثم لا بأس بأن ترتاحَ أجيالاً وأجيالاً
ولو في قاع أهوال جهنَّم!

.آه يا عرَّافةَ السلم الخرافيِّ ارحمينا
نحن في حضرة أمريكا . .
فمن يقوى على رفع جباه الذلِّ
عن نعل الأميرة؟
كانت النيةُ أن نهديك تاج العصرِ
من أحداق موتانا . .
ولكنا نسينا
آه يا جيهان ، كعك العيد جافانا
وفاتتنا مواعيد الخميرة
فاعذرينا ، يا أميرة!

-٥-
تسحق الطاحونة العشواء أعصاب الملايينِ
وتمتصُّ الدماء
ثم تسترخي على أحلام عهد قيصريّ
إنها طاحونة القهر التي

بتنا وكابدنا طويلاً
في حماها الأبويّ
وفقدنا بين فكّيها رياحين الرجاء
وذهلنا . . عندما لاحت ذراها المترفة
وهي تستخزي أمام الجبروت العنصريّ

***

يقف الشعر حيال القوة العشواء
مبهوتاً كسيحا
عالم الطغيان والحقد الموشّى بالأسيد
ومثار الأوبئة
شاد للحرية العزلاء تمثالا - ضريحا
وأنار الشعلة المنطفئة
يا بن أمي
نحن في مرآتهم قطعانُ أنعامٍ
وأحواضُ زيوت
فاحتفظْ بالنار يقظى
واحتفظْ بالذاكرة
وتنكّرْ بالسكوت
وترصّد في فِناء الهيكلِ الأبيضِ
سمَّ العنكبوت
يا بن أمي
أنت فوق البرزخ الدامي

ولا وقت لتختار قناعا من رماد
فتراجعْ للهلاك
أو تهيَّأْ لميادين العراك
وتمسَّكْ ساعةَ الهولِ بآيات الجهاد
تحتفظْ في دمك الغالي بمفتاح البلاد

***

أرضنا السمحاء ليست قالباً هشاً من الجبنِ
ولا سوقَ جوارٍ وتوابل
يا لصوصَ البحرِ والبستانِ
أعداءَ السواقي والسنابل
أرضنا طيبة فيحاء . .
أحنى من سويداء القلوب
تسع الأفلاكَ والدهرَ
وما طاب لها من كائنات
إنما أضيقُ من أن تحتوي ظلٌّ الغزاة
هذه الأرضُ الولود
هذه الأمُّ التي تصبرُ أجيالاً على البلوى
وتغضي وتجود
هذه الأرضُ لنا من فجرِ بابل
وإذا الساعةُ دقَّت
واستطارت كِلمةُ السِّر بأرجاء المدى :
«الله أكبر»

فلهم أن يشربوا البحرَ
ويحسوا زبد الأمواج
أو فليرجعوا من حيث جاؤوا
لجمة البشرى توافيني بأعماق الجنوب
موجة رعدية تخرج من تحت الرماد
طفلة تقرأ أيام الصليبيينَ
تستعرض أشباح المغول
ثم تلقي نظرة جذلى على ساعتها . .
وتقول :
«إن ما سمّوه (إسرائيل) وابتاعوا له
مجلس (القمل) العتيد
وأناخوا برؤوس الأمم الملتحدة
(تارة نلفظها : المنتحرة)
لم يكن يوما . . وهيهات يكون
غير كِذبة
نسجوها من أساطير القرون
دعوة خاوية الجوف كعجل السامريّ
وإذا استعصت على كل قوانين التحدي والكفاح
فلتعشْ سيدةَ الدنيا . .
بإلغاء الوجود العربي!

***

ثورة الأحرار والحق المبين
أيقظينا . . أيقظي حلم الملايين
اكشفي أغشية الداء الدفين
إن نُحدِّقْ في جراحات فلسطينَ
نجد صورتنا تدمى
وندرك
أن مشروع بني صهيون
مهما ألبسوه
من ضروب الأقنعة
ليس إلا ثكنة أو قلعة مستتبعة
لاستطالات الوباء العالمي .

-٦-

الدجى يعتصر الحلم ويجتاح الدروب
وأنا ضقت بخوفي وانتظاري
إن في قلبيَ نسغاً
من ينابيع الجنوب
وهو لا يسمح لليأسِ
ولا أغربة الشؤمِ
بأن تقرب داري
وجيوش العالم المسعورِ
لا تملك إلغاء اختياري

هذه أغنيتي . .
أنثرها كالضوء في كل اتجاه
ليس في مملكة الروح جنوب أو شمال
أمة واحدة . .
رغم احتدام السرطان العالمي
وطن يولد من جرح تحدى
دولة الشر وجيش الاحتلال
من هنا . . من خندق الثورة ،
درب الشهداء
نبدأ الرحلة . . لا نخشى
ألاعيب طروح النفط بالنار
ولا أنياب تجار الحروب
من هنا نعلن أفراح الثغور
من هنا يبتكر العشاق أسلوبا جديداً
لمواعيد القلوب
من هنا . . يا أهلنا الغالين
من حرية الإنسان والأرض
وأعراس الطيور
نبدأ الزحف معاً . .
من هنا نرفع رايات النشور
وغداً نمضي إلى مائدة الكرمل
أمواجاً ثقالا بالأغاني الطيوب

وأنا أحمل في قلبي زاد العمر
من خبز الجنوب
وإذا ارتجت ضلوع الصور
واشتدت أهازيج الرحيل
بين صيدا والجليل
فليكن لي من مناديل الأحباء جناحان
حفيان بألوان الغروب
وليكن مهدي من عشب فلسطين
مندى بالبخور

جئت لا أحمل إلا الروحَ
يا أرض البطولات اقبليها
فبكل الحب ، كل الحب والإيثار ألقيها
على درب فلسطينَ
فداءً للجنوب .

١٩٩٢

VI

أَطْيَافٌ مِنْ لَيَالِيهَا

الطبعة الأولى : دار عطية – دمشق ، بيروت ١٩٩٨

الإهداء

إلى طوكيو . .
(ثالث مدينة أعشقها بعد دمشق وأثينا)
وإلى حدائقها . . ومعابدها . .
وحاناتها . . وحتى مقابرها . . .
إلى سيداتها اللواتي يشبهن الدمى
في لباسهن التقليدي . .
وأخص منهن أولئك الأمهات - الشموع
في معاهد اللغة اليابانية .

علي

حالة شعرية.. اسمها اليابان

لا أحب كتابة المقدمات . . ولا حتى قراءتها . فالعمل الإبداعي يقدم نفسه بنفسه ، وأنا لست من هواة الوساطة . . ربما لأني أحب أن أتعارف مع المرأة مباشرة ، بلا أقنعة ، ولا مساحيق ، ولا موكب عائلي .

لكن اليابان – الأرض التي نبتت فيها بذور هذه «الأطياف» . . والأجواء التي تفتحت فيها براعمها . . والعلاقات الحميمة مع الناس والطبيعة والحياة بأبهى تجلياتها وتفاعلاتها الثقافية والاجتماعية والمعيشية . . وبكل إثاراتها وإيحاءاتها وذكرياتها الغالية – اليابان ، تلك الجزر الطافية على حافة المحيط العظيم ، جديرة بوقفة تأملية متأنية بعيداً عن الشعر ، وإن كانت تجربتي هناك أشبه ما تكون بحالة شعرية غامضة . . يختلط الحلم فيها بالواقع ، وتتشابك الأحاديث اليومية بالأساطير ، وتذوب الهواجس بالأماني والتطلعات ، وتتقاطع المواعيد الدقيقة بالمصادفات الخفية المدهشة .

إنها كوكب خارج مدار أرض البشر . . تلك هي اليابان . ولعلها كوكب الملائكة والقديسين والشعراء وحور الجنان ، الكوكب البكر بطبيعته الساحرة المخيفة . إنها الجمال المخيف ، وخاصة بكوارثها المفاجئة بالزلازل والبراكين والأعاصير . . وحتى الانجرافات الثلجية والصخرية . لكن الناس

يستقبلون تلك الكوارث باستسلام قدري عجيب . . وسرعان ما تصاب بتلك العدوى السحرية الجميلة .

أمضيت ثلاث سنوات هناك ، مدرساً للأدب العربي في جامعة طوكيو . ولم أشهد طوال تلك السنوات ولو مشاجرة واحدة حتى بين السكارى! وأبادر إلى الاعتراف بأن عظمة اليابان نابعة من عظمة المرأة-الأم .

ويطيب لي أن ينطلق الحديث بنا من الجذور :

إن ربة الشمس العظمى ذات الإشراق السماوي «أماتيراسو-أوميكامي» Amaterasu-Omikami هي الأم الأولى للشعب الياباني ، وهي التي أرسلت حفيدها ليعمر الأرض بدءاً من اليابان ، وقد زودته بالكنوز الثلاثة المقدسة : السيف والمرآة والجوهرة . السيف رمز الرجل والقوة والشجاعة ، والمرآة رمز المرأة والطهارة والصفاء والاكتشاف ، والجوهرة التي يرسمونها دائرة مفلطحة ومقسومة طولانياً بخط منحنٍ إلى حبتي فاصوليا تشكل رمزاً للمرأة والرجل معاً ، وتكون نواتها رمز الجنين .

وما تزال المرأة - الأم أو الأخت الكبرى - هي المسؤولة عن البيت الياباني وشؤونه وعن تربية الأولاد وتعليمهم حتى ينتهوا من المرحلة الثانوية . فالجامعة هي بدء انطلاق الفرخ من العش الذي ترعاه الأم .

والتربية عندهم تبدأ من الجنين : على الأم الحامل أن تتجنب الأصوات والمناظر المؤذية ، وأن تستمع إلى الموسيقى الهادئة العذبة ، وتستمتع بمشاهدة الأشياء المريحة الجميلة حتى لا تسيء للكائن المتنامي في رحمها . وحين تعمل في إحدى المؤسسات ، كما يعمل زوجها ، فإنها

تظل مسؤولة عن تربية الأبناء وتعليمهم ، كما أنها مسؤولة عن تدبير شؤون البيت .

ونظراً لطول ساعات العمل اليومية ، وللجهد الكبير الذي يقوم به الياباني حتى أطلق الفرنسيون عليه لقباً جارحاً «حيوان اقتصادي!» ، فإن وجبة الفطور لابد أن تكون غنية منوعة تحتوي على الرز والسمك والبيض والخضار والفاكهة .

هذا يعني أن على المرأة المسؤولة (أماً أو أختاً كبرى) أن تصحو من الخامسة صباحاً لإعداد وجبة الإفطار . فعلى العامل أن يغادر بيته في السابعة أو قبل ذلك ، حسب المسافة بين مسكنه ومقر عمله . وعلى الأم أيضاً أن تعد وجبات الغداء لأبنائها في المدرسة ؛ لأنهم لن يعودوا قبل الخامسة مساءً . وغالباً ما تقضي مساءها وهي تقلب مجلات الطعام بحثاً عن وجبة جديدة .

فرصة الغداء بين الثانية عشرة ظهراً والواحدة بعد الظهر . وتقدم معظم المطاعم وجبات محدودة الألوان وبسعر رمزي خلال تلك الساعة ، دون شراب كحولي . وغالباً ما يستمر العامل في عمله حتى السابعة مساءً ، وفي بعض الأحيان يعمل حتى التاسعة أو العاشرة . وفي طريقه الطويل إلى البيت ، لابد من تناول كأس من البيرة وحيداً أو مع الأصحاب . وتشير الإحصائيات إلى أن عدد المشارب في طوكيو لا يقل عن ثمانين ألف مشرب ، هو مقهى ومطعم وحانة في الوقت ذاته .

وربما كان الشعب الياباني من أكثر شعوب العالم استهلاكاً للشراب .

وتقدم شركات الخمر ألواناً من الإغراءات لزيادة الاستهلاك . ففي شهور الدفء مثلاً ، قبل موسم الأمطار الصيفية وبعدها ، تقيم المؤسسات

الاستهلاكية على السطوح مشارب موسمية تسميها «حدائق البيرة» Beer Garden .

هذا الواقع الغارق بالعمل والشراب يكاد يلغي الحياة الاجتماعية بين الرجل والمرأة داخل الأسرة . ومن الانتقادات الساخرة للزوج التقليدي أنه لا ينطق في بيته إلا ثلاث كلمات :

١- ميشي Meshi وتعني الرز المطبوخ أي «طعام» ، ٢- أوفُرو Ofuro : «حمام» ، ٣- Neru وتعني أنه يريد أن «ينام»! وقد سألت أستاذة يابانية مستعربة ، وهي عميدة إحدى الكليات ، أن تعطيني أحد الأمثال الشعبية ، فقالت : حتى لو كان مثلاً غير لائق؟ قلت : أنت تعرفين أن عندنا في العربية كثيراً من الأمثال النابية . قالت : «السمكة التي تصيدها لا تقدم لها أي طعم .» قلت ضاحكاً : «أين وجه السوء في هذا المثل؟» أجابت بشيء من العتب الغاضب : «هذا المثل عن المرأة . إنه يقول : إذا تزوجت امرأة فإياك أن تقبلها أو تساعدها أو تخصها بأي كلمة حب أو مراعاة أو معاملة حسنة!»

وتشير التقاليد الصارمة إلى أكثر من ذلك ؛ إذ كان على المرأة أن تمشي وراء زوجها بثلاث خطوات لئلا تدوس على ظله!

لكن معظم هذه العادات صارت من ذكريات الماضي . إنهم يحيطون الطبيعة بهالة من القداسة . ولأن المرأة ، كالزهرة والشجرة والطير والسمكة والفراشة ، أجمل ما في هذه الطبيعة فالنظرة إليها لا تخلو من قداسة أيضاً ما دامت مشروع أم .

إن الطبيعة البركانية زودت اليابان بآلاف الينابيع والبرك الحارة ، ومن عادتهم أن يستحموا فيها عراة . وربما كانت هذه العادة من أصعب ما يواجه

الغـريب ، وبخـاصـة إن كـان ، مثلنا ، مثقـلاً بتـاريخ طويل من المحظورات والمحرمات .

لقـد جعلتني اليابان أكتشف أن لي جسداً ، وكان اكتشافاً متأخراً جداً . . إذ كنت في السابعة والخمسين يوم حدثت تلك الصدمة الرائعة . إن متعة الياباني الأولى تكمن في الطعام والشراب . قد يتناول الوجبة معك عشرات المرات ، وحين تسأله رأيه فيها يجيبك بإعجاب طفولي Oi-shii «لذيذة»! ولعل شـرائح السـمك النيئ Sashimi من أشـهى مأكولاتهم . المتعة الثانية تأتي في الراحة والاستجمام ، بعد عمل مرهق . لا يشغلهم التفكير في الماضي ولا المستقبل ، إنما اللحظة الراهنة وارتشاف البهجة منها حتى آخر قطرة كل ما يعنيهم - كما يبدو لك . الهموم الخاصة تظل حبيسة في الأعماق . وفلسفتهم تفصل فصلاً واضحاً بين ما هو خاص وبين ما هو عام . وهذا يظهر جلياً في اللغة .

في لغتهم أربعة مستويات من الخطاب : مستوى الحوار بين الأصدقاء ، مستوى الاحترام والمجاملة بين الطالب وأستاذه أو بين الصغير والكبير ، مستوى الحديث الدبلوماسي وحديث التبجيل للإمبراطور ، وهناك صيغة فعل لا تقال إلا للصغار والحيوان . وليس في هذه الصيغة الأخيرة من إهانة حسب مفاهيمنا . الحيوان والنبات عندهم جزء من الطبيعة المقدسة .

وأطرف ما قرأت من استطلاعات الرأي في الصحافة تلك الأجوبة المنشورة في رأس السنة عن سؤال : «ماذا تحب أن تكون في الجيل القادم؟» كانت النسبة الكبرى من عشاق الطيور والأسماك ، وكان آخرون من عشاق الخيول والغزلان ، وأحدهم يتمنى أن يعود إلى الحياة خنزيراً برياً . وأنت الغريب تقرأ وتتأمل وتندهش وتستمتع ، وليس من حقك أن تشمئز

أو تستنكر ، بل لا بد من أن تحترم أفكارهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ما داموا يعاملونك بالمثل ، وليس هناك من شعب مختار في الحياة والسلوك والقيم والمعتقدات .

إن الدين الوحيد السائد في اليابان هو دين (العمل) . فأنت لا تعرف إن كان صديقك أو صديقتك من أتباع البوذية أو الشنتو Shintoo (طريق الآلهة) أو المسيحية أو الإسلام . جميعهم يزورون المعابد البوذية والشنتوية للتنزه والاستجمام والتقاط الصور التذكارية ، وقد يمارسون الطقوس ذاتها دون أي غضاضة أو حرج أو مراءاة . ورغم أنهم بلغوا المرتبة الأولى في عالم الصناعة والتكنولوجيا ، إلا أن التقاليد الاجتماعية المتوارثة مازالت صارمة . والزائر الغريب لا يحس بالتناقض بين الأصالة والحداثة ، لكن كثرة حوادث الانتحار تشير إلى وجود شرخ داخل النفس الفردية والاجتماعية ، وإن كان الانتحار عندهم من السمات الوراثية المعروفة في تاريخهم حتى إن لغتهم تضم في مفرداتها كلمة Shinjuu وتعني الانتحار المزدوج ولا سيما انتحار الحبيبين ، وهي مختلفة عن الانتحار الفردي ، وهم يرسمونها بالرموز الصينية (كانجي) بشكل مؤلف من مقطعين : صورة قلب Shin ومركز أو وسط Juu وكأن الكلمة تعني انشطار القلب إلى نصفين .

إن لغة الحديث بسيطة وتعلمها ميسور ، لكن المشكلة في صعوبة القراءة والكتابة : على تلاميذ المرحلة الابتدائية أن يتعلموا رسم ٨٨١ شكلاً صينياً وحفظها (خمسة أشكال في كل يوم دراسي) . ولا ينتهي الطالب من المرحلة الثانوية قبل أن يتقن ١٨٥٠ رمزاً أو شكلاً . ولابد أن يرتفع هذا العدد في الجامعة إلى أكثر من ثلاثة آلاف شكل . أما الكاتب

والصحفي فعليه أن يعرف ما لا يقل عن خمسة آلاف شكل .

وهذه الأشكال الصينية تعطي المعنى- جذر الكلمة ، أما ملحقات الإعراب فتكتب بالأحرف اليابانية المبسطة . وعندهم أبجديتان : واحدة للكلمات اليابانية والأخرى للكلمات الأجنبية الدخيلة والتي ليس لها رسوم صينية . وهاتان الأبجديتان من اختراع النساء ، ولم تكونا في الماضي لائقتين بالرجال .

ولغتهم مقطعية صائتة ، والنون هو الحرف الوحيد الذي يأتي ساكناً ومتحركاً . ولكل حرف في أبجديتهم خمسة أشكال إلا النون فله ستة أشكال . وهذا يعني أنها ذات إيقاع موسيقى - شعري واضح .

ويوم سمعت من إحدى محطات التلفزيون الياباني مذيعة تقرأ نشرة الأخبار . . قررت أن أتعلم تلك اللغة ، ولو هدرت في سبيلها أغلى السنوات القليلة الباقية من رحلة العمر . وربما كانت مغامرة عبثية ، شبه جنونية ، أن تبدأ بدراسة لغة أجنبية وأنت في عتبة الستين .

ولعل تلك المحاولة كانت توطئة لقراءة الشعر ، ولا سيما قصائد الهايكو Haiku . إن قصيدة الهايكو أقصر قصيدة في العالم وأشدها كثافة :

البركة العتيقة

ضفدع يقفز فيها

صوت الماء

هذه الأبيات الثلاثة التي تشكل ١٧ مقطعاً (٥ - ٧ - ٥) من أشهر قصائد الهايكو في اليابان ، وهي من شعر باشو (أعظم شعرائهم) . وحين يتوسعون في شرحها تصبح البركة العتيقة هي هذا الكون الأزلي القديم . ويغدو الضفدع هو الشاعر ، الإنسان الوافد إلى هذا الكون . وحياته في

قياس الزمن لا تزيد عن قفزة الضفدع . . ثم لا يبقى من حياة الإنسان إلا الصوت أو الصدى الخاطف والناتج من ارتطام جسد الضفدع بسطح الماء . ومسحة الأسى تلوح رقيقة وراء هذه القصيدة ، ولا سيما الإحساس بالوقت الصيفي الهارب ودلالته المؤثرة .

طبيعة اليابان الجبلية بأنهارها القصيرة وجمالها الوحشي هي التي أوحت بابتكار هذا الشعر المكثف المدهش . إنه ابتهال آسر كإيماضة البرق في محراب الطبيعة – أمنا الخالدة . كان الشاعر الصوفي ، مقتدياً بالكهنة البوذيين ، يمضي شهوراً وهو يطوف في أرجاء الطبيعة لكي يكتب قصيدة من تلك القصائد . ولا بد أن تضم كل قصيدة كلمة تشير إلى الفصل الذي كتبت فيه . وقفزة الضفدع في القصيدة المذكورة آنفاً هي التي تدل على الربيع أو الصيف .

وإذا كان الشعر في عصرنا كالموسيقى ، من المريح أن تستمتع به قبيل النوم كتعويذة مباركة لإبعاد الكوابيس ، فإن الرواية اليابانية تقف في طليعة الفنون والأجناس الأدبية الممتعة . ولكن من العسير أن يقبل كهنة المجتمع العربي بنشر الترجمات الأمينة لتلك الروايات لأنها طافحة بالإشارات والمشاهد الجنسية . ويوم ناقشت هذا الموضوع مع أكثر من سيدة ، قالت لي إحداهن : ألم تسأل والدتك كيف جئت إلى هذه الحياة؟ لماذا لا تخجل الأزهار والأشجار من التلاقح في مواسمها؟ ألا تفكر كيف تحولت الزهرة إلى ثمرة؟

مشاهدة المسرح الياباني التقليدي (نو ، كابوكي) متعبة بقدر ما هي ممتعة . لذلك كنت أهرب إلى المسرح الحديث والسينما ، ومن أجمل الأفلام التي شاهدتها فيلم يرصد حياة عجوز في أواخر خريفه كأنه زوربا

ياباني وعنوانه (كأنه ابن الريح) للمخرج الصديق ساتو . وكانت مسرحية ٢/٢ لنجمة الغناء والمسرح الغنائي الياباني نكاجيما ميوكي (الاسم الأول اسم العائلة وهو الأهم في المجتمع) هي آخر مسرحية شهدتها هناك .

ثلاث سنوات في طوكيو ، غلغلت في نسيج لياليها حتى القاع . . وقلما نمت قبل الرابعة صباحاً . إني أعد تلك السنوات القليلة أغنى وأهم وأغلى من سبع وخمسين سنة عشتها قبل ذلك . ولعل السنة الأخيرة كانت أخصب السنوات وأجملها ؛ إذ تعرفت إلى إحدى الفرق البوذية من أتباع طريقة (زِنْ) Zen الصوفية . كنا نلتقي مرتين في الأسبوع . نتحاور ونشرب الشاي الأخضر بطريقته التقليدية ونقوم بنزهات ورحلات مشتركة ومتقشفة . سيدة في الثانية والثمانين كانت مشرفة على تلك الفرقة - الأسرة الكبيرة . كنت ألح عليها بأسئلتي مداعباً :

«Okaa-san (سيدتي الوالدة) متى أحصل على الإشراق؟» وكانت تضحك كطفلة وتقول :

«ما زال الطريق طويلاً . . سافر إلى الهند أولاً وعش هناك ، ولكل شيء أوانه .»

كذلك لا يمكن أن أنسى تلك السيدة التي كنا نعتبرها أمنا جميعاً - نحن الأجانب الذين نزورها بصحبة ابنها الأستاذ المستعرب - رئيس قسم اللغة العربية في جامعة طوكيو . هي أيضاً في حدود الثمانين من عمرها . وكان عملها في التربية والتعليم . وقد أصدرت عدة كتب عن تجربتها التربوية ، وما زلت أحتفظ باعتزاز بآخر كتبها ، وعليه إهداء بخطها . لم أستطع زيارتها في السنة الأخيرة لأنها بدأت تفقد الذاكرة - كما قيل لي - بفعل الشيخوخة . لكني أحدثها بالهاتف بين حين وآخر ، فتهتف

كطفلة معاتبة : Ari-san, Hisashiburi اللام تنقلب إلى راء في اللغة اليابانية ، و(هيساشيبوري) تعني «مر وقت طويل أو بعد غياب طويل» ، وهي قريبة من تعبير «أوحشتنا» بين الأهل والأصدقاء . تلك الأم الغالية سوف أهديها أول كتاب عن اليابان ، بعد هذه القصائد .

ماذا أقول عن الأمهات الأخريات وعن الصديقات العزيزات؟

في مقهى Suavor ذي الطابع الفرنسي ، بالقرب من محطة القطار في Kichi-Jooji التقيت عشرات السيدات ، وتحادثنا طويلاً ، وشربنا أنهاراً من البيرة في مشارب الزرافة Kiriin Beer ، وبعضهن كن معلماتي في معاهد اللغة اليابانية . إن الطفل لا يقوى على نسيان أمه الأولى ، فكيف ينسى أمهات من الملائكة أو من أهالي كوكب آخر؟

كنت أتسكع كل يوم ساعات في ليالي طوكيو بين مقاهيها وحاناتها وحدائقها ومكتباتها . . وكنت أذهب سيراً إلى عيادة الطبيب الذي يعالجني بالإبر الصينية لقتل آلام الظهر . وكثيراً ما كنت أستمتع بأمطار الصيف الدافئة فلا أحمل مظلة وأنا انتظر مجيء الباص . . فأفاجأ بمظلة فوق رأسي ، ألتفت باندهاش فأرى سيدة – أماً في الستين أو السبعين تنحني معتذرة . وأدعوها إلى فنجان قهوة – إن كان لديها وقت – في الكافتيريا المجاورة . . تعتذر أحياناً ، وفي كثير من الأحايين تقبل الدعوة شاكرة ؛ لأنها تريد أن تكسر جليد الصمت والوحشة مع أي إنسان . أحدثها عن شعراء البادية والمدن الصحراوية الذين يعشقون المطر . . ويصبح المقهى والحديقة المجاورة مكاناً للمواعيد وكأننا عشاق . إن الغربيين يتهمون اليابانيين بأنهم – في معظمهم – يعانون من عقدة السيد (أوديب) ، وبعد رحيل أمي بعشرين سنة ، اكتشفت في طوكيو أني مصاب بنعمة ذلك

العشق ، وهو أغلى بركات الطبيعة- أمنا الأولى .

لا شك أن الانغماس في الحياة اليابانية أصاب حياتي برجة عاصفة ، تمادت حتى اعتصرت الروح أو نثرتها شظايا . لقد عشت تجربة الموت هناك بين ١٥ و ١٨/٢/١٩٩٤ ، وكانت تجربة مرعبة إلى أقصى حدود الهول . كنت أشعر أني أغيب وأتلاشى في الفضاء شيئاً فشيئاً بلا رجعة .

وكان صوت سيارة الإسعاف التي حملتني مرتين إلى المشفى يأتيني من مدار بعيد لا علاقة له بالأرض . ويومها وقف الأطباء اليابانيون ، بكل ما لديهم من تكنولوجيا خارقة ، عاجزين عن تفسير حالتي . . وكنت أكثر منهم عجزاً .

يقول الشاعر البوذي :

لا تختلف الحياة عن الموت إلا كاختلاف الماء والجليد .

ولقد عشت تلك التجربة فعلاً ، ولو بصورة مغايرة ؛ إذ كنت أشعر بروحي كبخار ماء يتلاشى في الفضاء السحيق . لا أتذكر تفاصيل تلك التجربة القاسية ، ولا أعرف كيف عاد وعيي إلى طبيعته . لكنني أدرك الآن جيداً أنني ، جسداً وروحاً ، جزء من هذا الكون العظيم . ويوم يعود التراب إلى جسد الأم- الأرض ، والماء إلى محيطه العظيم ، والهواء إلى هذه الأجواء المترامية . . ستعود الطاقة الفكرية للذوبان والاندماج بالطاقة الكونية التي تملأ المجرات والمدارات بلا نهاية . وأنا مدين بذلك كله لتلك السيدة - الأم البوذية التي تجاوزت الثمانين ، وما زال وجهها مشرقاً كأنها في الأربعين ، وهي ترعى أسرتها الكبيرة من البوذيين المتصوفين .

إن أطياف طوكيو ما زالت تخطفني في كثير من الليالي المقمرة إلى هناك . . لكني لا أعرف تماماً : أين يبدأ الحلم وأين ينتهي الواقع . وغالباً ما

أسأل نفسي : هل كانت حياتي هناك حقيقة أم حلماً؟ . . هذه هي الحالة الشعرية التي لا أقوى على التقاطها بكلمات . . ولا أقوى على الخروج منها .

. . . ومعذرة من عشاق المقدمات .

علي كنعان

إشراق

أدخلُ في طفولةِ الأشياء . . .
أكانتِ الأرضُ التي حنا عليَّ ثديُها
أم ديمةُ السماء ؟
تخطفني زوبعةٌ بيضاءُ من دوار
ماذا تبقّى من فتاتِ الزادِ
حتى أعبر السُّورَ الذي يحولُ
بين النبع والجرار؟
وكيف أمتاح سلاف الوجدِ
في لبابهِ المكنون؟
أودُّ لو أسيحُ تحت قُبَّةِ الرمانِ
أو أغوصُ في مجاهلِ الخليج
أذوبُ في أندلسِ الخضرةِ . .
أحيا نضرةَ النَّسغِ الذي يمرحُ
بين الجذرِ والثّمار
أنحلُّ في سماحةِ الضياء
تأخذني فرداةُ الألوانِ في مملكةِ الأزهار
أنسابُ في مزاجِها الخفيّ

أنعمُ بالغبطةِ في التلاشي
من يا ترى يدركُ سرَّ الماء؟
في لونِه ، في طعمهِ ، في الجوهرِ البهيّ؟
أنتِ التي أبدعتِ سحرَ الكيمياء
سوّيتني صفصافةً ، قصيدةً ، إعصار
جعلتِني سحابة
مطلقةَ السراحِ في سديمك الدريّ
يا لغةَ الإشراقِ والجنون
من يرسُم الفاصلَ بين الصوتِ والصّدى
من ينسجُ البوحَ الذي تبثُّه الأنسامُ
للغصون؟
«فوجي»(*) يلوحُ في المدى
كراهبٍ دهريّ
يسكبُ من وِشاحِه الثّلجيّ
خمسَ بحيراتٍ من المحبّة
وأنتِ يا سيدةَ البهاء
أكنتِ خمراً ليلةَ امتزاجِنا . .
أم ماء؟
– من يسألُ الجنينَ : «من براك؟»

(*) فوجي أو فوجي- سان : جبل بركاني (٣٧٧٦ م) يقع في الجهة الغربية من طوكيو ، ويحيطه اليابانيون بهالة من القداسة .

«ومن أتى بالبذرةِ الأُولى؟»
تبارك السّرُّ الذي جلَّ عن الإدراك
لعلّنا كنّا معاً . .
خميرةَ الأشياء .

دمشق - ١٩٩٦

هيروشيما ثالثة

أُوكيناوا . .   .
أُوكيناوا . .
أُوكيناوا . .
طفلةٌ تغفو على أُرجوحةِ الموجِ
وعيناها شراعان يلوبان على الأفق البعيد
قمرٌ يزهر أو يذوي على شرفةِ نيسانَ
طقوسٌ تتعرّى
وجراحٌ لا تُداوى

***

أُوكيناوا قلعةٌ في الخندقِ الأولّ
خانتها حساباتُ الشمال
أفردوها لتصير
هيروشيما ثالثة
فانتهت في شهقةِ السّهمِ الأخير

***

أُوكيناوا وَجَعٌ في الذّاكرة
شُهبٌ تهوي من الرُعبِ

نفوسٌ تتشظّى
وبطونٌ فاغرة
حاجزٌ كالحارس اللّيليٌ في بوّابةِ الدارِ
وبابان لإيهام المغيرينَ
و(شِيسا)(*) رَصَدٌ في كلٍّ باب

***

سفنٌ ملأى برعيانِ البقر
وصبايا . . نقشت أجسادُهنَّ الدّامية
لعنةَ الدّهرِ على وجهِ الغزاة
وثبةٌ من جرفٍ في غبشِ الفجرِ
وأشلاءُ الأقاحي تتلوّى
فوق أنيابِ صخور الهاوية

***

(*) شيسا : وحش خرافي الشكل ، يضع أهالي أوكيناوا تماثيله أمام الحوانيت وعلى جانبي بوابة الدار ليمنع الأرواح الشريرة من الدخول . وجزيرة أوكيناوا – في جنوب الغرب الياباني – تجاوز عدد الضحايا من أبنائها خلال الاحتلال الأمريكي عدد ضحايا هيروشيما ، إذ كانت الخندق الأول والأخير في جبهة الباسيفيك . وقد استمر الاحتلال الأمريكي لها ٢٧ سنة ، وما تزال القواعد الأمريكية تنيخ فوق صدرها . . . ويذكر أهاليها أن آلاف الصبايا ألقين بأنفسهن من فوق الجروف العالية إلى أمواج المحيط ، خوفاً من الاغتصاب . وما تزال جرائم الاغتصاب التي يرتكبها مشاة البحرية الأمريكية تتكرر حتى اليوم وتدوي أصداؤها الجارحة بين الناس وفي الصحافة اليابانية .

كلما رفَّ على الأمواجِ منديلُ المساء
هزَّت الآفاقَ صيحاتُ الدماء
الرَّياحينُ التي تفتحُ للشمسِ عُراها
جرَّحتها شهقاتٌ من دماء
والعصافيرُ التي تسرحُ في الأجواءِ
يكسو ريشَها عطرُ الدماء
والنُّسيماتُ التي تبحثُ
عن زاويةٍ آمنةٍ
في مدن الأشباحِ
تسترخي على الشطآنِ ريًّا بالدماء

***

في ليالي أُوكيناوا
يَعصبون الجرحَ بالملحِ
ويرجون مع الفجرِ
رحيلَ الغرباء .

١٩٩٥

جنية الفصول

إلى *Nagata Taeko*

تائكو(*) جِنِّيَّةٌ من أوكيناوا
خاضتِ الحربَ . .
كما حدَّثها التَّاريخُ عنها
في كتابِ المدرسة
خَلَعت قُبّعةَ الحربِ
وعادت رايةً منكسرة
وهي لا تذكر شيئاً
من فصولِ المجزرة

. . . .

دارتِ الأرضُ بها دهراً
عسى أن يترامى ظلها حولي
ودار الفلَكُ المحمومُ دهرين بنا
دون لقاء

(*) كو KO : معناها في اللغة اليابانية (ابن – ابنة ، طفل – طفلة) ومعظم أسماء النسوة هنالك تنتهي بهذا المقطع مثل : مساكو ، ريكو ، تائكو ، يوكو ، توموكو ، أكيكو . . إلخ ، وذلك يشبه صيغة التصغير للتحبب في اللغة العربية .

ثم حطّت في حمى قلبي
كنهرٍ من رحيق
سنواتٌ قُطِّرت بضعَ سويعاتٍ
سرقناها معا . .
وأنا أبحر في آلائها
شِبْهَ غريق

. . .

نَجمةٌ من سَغَبٍ غادرتِ الأفلاكَ
حيرى من تماديها
ولم تعثر على زادِ الطريق

. . .

درَّةٌ من كهنوتِ الماءِ
في خلوةِ بوذيٍّ
وروحٌ غجريَّة
نفحاتٌ من خوابٍ بابليَّة
جسدٌ من ياسمينِ الشّام
ملفوفٌ بأوراقِ البنفسج
كلَّما هلَّت رؤاها في فضاءِ الرُّوحِ
غنَّى وتوهَّج

***

تاثكو بحرٌ من الألغازِ
مجهولُ المواني

يستحيلُ اللّيلُ في أيكتها
بضعَ ثوانٍ
تجعلُ اللّحظةَ دهراً من نعيم
حلمُها الورديُّ أن تخرجَ
من أرضِ الطّواويسِ
وتاريخ الحريم

***

هي لا تحفلُ بالموتى
ولا تأسَى لمن ضاعَ من الفرسانِ
في دوّامةِ النّهرِ المغطّى بالحرير
وهي لا تذكرُ من عشّاقِها . .
إلاّ الأخير
عندما أخفقَ بالحرثِ . .
فلم يُدرِكْ حنينَ السّنواتِ البُورِ للغيثِ
وأعياه اجتراحُ الشّهدِ
في قاعِ الخليج
طرحته في سِجلّ الأصدقاء!

١٩٩٦

أطياف عابرة

-١-

كاهنٌ من قومِ بوذا
يتملّى رحلةَ الغيمِ
ويستجلي شحوبَ الأرنب الغافي
على صدرِ القمر
شهبٌ تهوي وراء السُّورِ
غواصٌ عجوزٌ يتشهّى لؤلؤة
وأنا أوغل في كأسي . .
إلى قاعِ الضّجر
يشهد المقهى بذورَ اللهفةِ الأولى
إلى دفءِ امرأة
حين هلّت . .
وانحنت ترتشفُ السّاكي(*) . .
تشهّيت احتراقي

(*) ساكي أو ساكِيه Sake (كما يلفظها اليابانيون) خمر وطنية يصنعونها من الرز .

بين جمرِ الشّفتين
وهي ترنو . .
نزوةٌ في البالِ أو في خدرِ الكأسِ
ولا شيءَ يداوي لوثة الحمَّى
هنا أنتَ سحابٌ في يدِ الرِّيح
نثارٌ من ضبابٍ في العيونِ الغائمة
فاحترس ألاّ تكونَ الخاتمة .

- ٢ -

قلعةٌ سارحةٌ فوق العباب
وعلى أدراجها يسهر عشّاقُ القمر
لوحةٌ تنتظر الألوانَ . .
غابَ الشّفقُ الناريُّ ،
داخت رقّةُ الليمونِ
وانساحت على الأزرقِ من فرطِ الشّراب
أنتِ أم قارورةُ السّاكي؟
أم النَّجمُ الذي ضلَّ المدار؟
أيقظ الجمرَ ولم يرحم خريفَ الذاكرة؟!
سحبٌ تحنو على العشّاقِ
تُخفي عنهم كيدَ القمر
وحقولٌ نسيت طعم المطر

ينشر الليلُ حكاياه على صدرِ المحيط
يقبض الطِّفلُ على ناصيةِ الموجِ
وينسى قلبَه زنبقةً بيضاءَ
في لبٍّ المحار
وأنا ألتمُّ في زاويةِ المقهى كنايٍ خشبي
عافه ركبُ الغجر
خائفاً أرصد أطيافَ الوجوهِ العابرة .

- ٣ -

يامَسَاكو . . .
جفَّتِ الوردةُ في زاويةِ الحوضِ
فلا تأسَيْ على شُحِّ الغلال
إن تلفَّتٌ إلى الوادي
وقد طوَّقتِ الخيبةُ ميعادَ الهلال
حسبُنا في شرفةِ اللَّيلِ الخضيل
بهجةُ اللقيا . . .
وكوبان من الشّايِ المحلَّى بالعتاب
وينابيعُ من الأشواقِ تكفي
لاكتشافِ المستحيل
بحرنا مازال صحراءَ من الحمَّى
يغشّيها ضباب

فاتركي للريحِ أن تمضي بنا
طوعَ هواها كالسحاب
وأريحي رأسَكِ المخمورَ في صدريَ
حتى توقظَ الأنجمُ
أجراسَ الرَّحيل .

– نيسان ١٩٩٥

تشكيل

في ليالي ضجري تُقبلُ رِيكو
كالسُّنونو في مواعيدِ الحصاد
أسكبُ اللّهفة ألواناً لكي أرسمها :
يدُ ريكو زنبقة
صوتُها سربُ يمام يعبر القلبَ
ليبني أيكةَ الأحلامِ
في صفصافِ وادي بردى
فمها برعمُ وعدٍ
أشتهي أن يتفتَّح
قبل أن تخطفني ندَّاهةُ الرِّيحِ
إلى نهرِ الرَّماد

***

وجهُ ريكو . .
غاص في كأسي مراراً وابترد
طفلةٌ مازال في إطلالةِ البدرِ
ولكنَّ الجسد
كرزٌ يرفلُ وهجاً واختمار

تُشعلُ الخمرةُ في أوصالها روحَ الصِّبا
ينبثقُ اللؤلؤُ من جوفِ المحار
وأنا يعصفُ بي من عريِها
موجٌ دوار
أتملَّى ذاهلاً فردوسَها :
تكويرةُ الرُّمّانِ في موعدها ،
منعرجُ الكثبانِ والدّلتا ،
هلالُ المشرقين
ومداراتُ الرؤى الأندلسيَّة
من تُرى يرسم طيفَ امرأةٍ
جُنَّ بها وامتزجت روحاهما
جيلاً فجيلاً . .
قبلَ تحريمِ الأحاسيسِ
وإعلانِ الحصار؟ .
تلهثُ الألوانُ بين الشفقِ الزَّاهي
وثلجِ القممِ السَّاجي
وجمرِ المنحدر
تخجلُ القهوةُ أن تفترشَ السُّرَّةَ
أو ترتشفَ الحلمةَ
أو تدخلَ في حاشيةِ النَّبعِ الحميم
وتروغُ الكستناء

***

تنحني ريكو على كأسي
وتُخفي عريَها في خمرتي
وأنا أوغلُ في رسمِ التفاصيلِ الوضاء
يسهر اللّيلُ معي
يَضفرُ من أنجمهِ أحلى إطار
ومع الإصباحِ أمحو ما رسمت!

طقوسٌ ملوَّنة

- ١ -

كانت المهرة تجتاز المدى
جامحةً دون عنان
قلت : «هل من حرجٍ يا ناس ،
إن آويتُها تحت رفيفِ القلبِ؟»
لكنّ السُّكارى ضحكوا :
«حاولْ . . .
وبادِرْ بالرِّهان!»

***

جُنَّت المهرةُ . .
لا تعبأ بالريحِ
ولا تعبأ بالموجِ
ولا تأسى لمن ضاق بهِ
صدرُ الزمان
وهي تدري
ما الذي أشعل غاب السنديان
وحدها كانت عروس المهرجان .

- ٢ -

ترتمي جنّيّة النعمى
على شاطئ قلبي
وأنا أحلم أن تسكن فيه
هاجساً . . أو سالفة
وسراجاً مريميّاً
يتلقّى زيتَه من خمرةِ التّفاح .
لم أكن أخشى جنونَ العاصفة
حين نادت للرياح
طائرُ الوجدِ الذي استوحى رؤاه
من ظلالِ الأمّهات الوارفة
كيف يبني عشّه وسْطَ الجراح؟

***

لم تكن جنّيّتي تدري
بما ينتابني من وجعٍ تحت الجناح
كلما رفَّ سناها
في متاهات اغترابي
واأتلق
تركت رسم طريقي
عبر أدغال الأرق
لاختلاجات النجوم الخاطفة .

- ٣ -

قمرٌ في الشاطئ المهجورِ
يغريني بأن أفرش في بوّابةِ الشامِ
له قلبي ليرتاح قليلاً
قلت : أخشى أن تضلّ الدربَ
في البيدِ
فلا تقوى على السَّير طويلا

***

مطر . . يغزل آياتٍ من البشرى
بميلادِ الربيع
بعد أن جار خريف العمرِ
حتى المرمرة
وتقلبت دهورا
بين أنياب الصقيع

***

همست : (هل نلتقي ثانيةً . .؟)
واندفع الموجُ البهيميُّ
يغطّي صوتَها
تاركاً قلبيَ مكسور الجناح
آه ، يا ريحانةً ريّا بأحلام الصّبا
كيف؟ . . وأيّان اللقاء؟
مدنُ الرّقِّ ،

لهاثُ الوقتِ،
رأسُ المالِ . .
غولٌ لا يراعي
نفحاتِ الوجدِ تزكو
في قلوبِ الغرباء
والمحطّاتُ التي تجمعنا
سرعان ما تلقي بنا
نهبَ الْتياثاتِ الرياح .

- ٤ -

كالنّدى تخطر يوكو
في هجيرِ الجامعة
عشقت يوسفَ إدريسَ
ولم تسمحْ لطيرِ الموتِ
أن يخطفَه من دارِها
هالها (بيتٌ من اللحمِ)
ولمّا تنجُ من (قاعِ المدينة)
يوم جابت معه أطلالَ رمسيسَ
وأغراها بأنفاسٍ من الخشخاشِ
كي تقوى على خوضِ
مراراتِ (الحرام)
لم يكن يدري أحلمٌ هي يوكو؟

أم حقيقة؟
غاب إدريسُ
وغشّى وجهه ظلُّ السكينة
وهي ما زالت على العهدِ
تناجيه ، تواسيه . . وترجو
أن يمرَّ الليلُ كالأمسِ عليهِ
بسلام .

***

الجسد

لا شيءَ ينتظرُ المسافرَ
في سديمِ الغيبِ ،
في أبدِ التّلاشي
خلفَ أطيافِ النجوم
لا وعدَ ، لا نُعمى ولا حمّى . .
ولا حتّى رسوم
هل تستطيع الروحُ يوماً
أن تُترجمَ بعضَ ما يوحي به الذوبانُ
في بحرٍ من الإشراقِ والنُّعمى
يفيضُ بوهجه جسدُ امرأة؟
سحبٌ من الزَّبدِ المراوغِ ،
سافياتٌ من صقيعِ الموتِ ،
باديةٌ خواء .
أفقٌ هباءٌ . .
والسرابُ يموجُ ،
يغمرُ دارَك الأخرى ،
فضاءٌ من دخانٍ أو غبارٍ

مشبعٌ بالأوبئة
زبدٌ جفاءً . .
ينتهي بين الرّمالِ
وليس فيهِ
ومضةٌ من لؤلؤة
فانعمْ بوهجِ صباك مهراً
من نسيمٍ أو رحيق
واسرحْ مع الجَسدِ الطليق
هل تستطيع الروحُ أن تجلو
غيومَ السِّرِّ عبر معارجِ الذّوبانِ
في جسد امرأة؟!

يوريكا

من شرفةِ الروحِ تطلُّ يوريكا
كوردةٍ جوريَّةٍ في مفرقِ الزمان
تحكي لنا ما اكتشفت في يومها
وتنثر الحروفَ في دفترها
كالشَّفق الراعشِ بين الجمرِ والدخان
وفي المساء تنحني ريحانةُ الفصول
كأنها رسالةٌ من قمرٍ وردي
تضمّها بكلِّ ما في ملكوت الروحِ
من حنان
تبعد عن سريرها مسالكَ النجوم
لكي تنام
وتغزل البهجةَ في أحلامِها
رفيفَ أطيافٍ من الريحانِ واليمام
وفي الصباح تزهر الآفاقُ بالأمل
ولا تضنُّ جارةُ القمر
على أديمِ الألقِ الجوريِّ بالقبل

***

تزهو حياتي واحةً
ترسمها بريشةِ المطر
على هوى طفلتها ريحانةُ الفصول
ما أعذبَ النّسغَ الذي
يطويك في جوانحِ السفر
بين طقوس الجذرِ والأفنانِ والثمر
وما أرقَّ الروحَ أن تفيض
نهراً من الضياءِ والحنين
فإن أثرتَ غيرةَ النجومِ
في ديارها القصيَّة
فتابع الحياةَ في أفراحها
ولتكتبِ النجومُ ما تشاءُ
في أوراقها الخفيَّة .

عتاب

يبتدرن الشارعَ الغافي
على أجنحةِ البرقِ
كأسراب الوعولِ النافرة
يتحاشين لقاءَ النظراتِ المولعة
ما الذي يفعله في ليلهِ
هذا الجرادُ المستطير؟
في القطاراتِ ينامون وقوفاً كالنعام
ما الذي تُخفيهِ أعماقُ المحيط؟
أوجوهٌ هذه الأمواجُ
صُبَّت من رخامٍ باردٍ..
أم أقنعة ؟!
عشت دهراً وأنا أبحث عن عينينِ
أحكي لهما بعضَ شجونِ الروحِ
لكنَّ الملايينَ هنا دون عيون!

***

النسيماتُ التي تخطر من (فوجي)
ويسري بوحُها في كل باب

بادرتني بالعتاب :
(لا يكنْ قلبُك من صخرٍ
ولا تُبحرْ بعيداً في الزبد
ربما أغضوا لئلا تجتلي أبصارُهم
ما فيك من غمٍّ وضيق
كلُّ طيرٍ وله أسرارُهُ
ربما لا تسمح الأجواءُ أن يكشفها
ربما كانت حدودُ الكشفِ
أقسى وطأةً مما يطيق
أنت جوعانٌ لدفءِ امرأةٍ
والجوعُ في عينيكَ
من قبلِ غواياتِ امرئِ القيسِ
فلا تسترْ بطهرٍ قرويٍّ خجلَك
والتمسْ فردوسَك الموعودَ
في لوحِ الفلَك .)

***

في حديقة بوذا

إلى علي فردوسي . .

ذكرى حدائق البيرة . . وأحاديثنا الدائخة

بين الغزالي . . وعمر الخيام .

مرةً موعدُنا أزهرَ
واختارت له ركناً
على مقربةٍ مِن شرفةِ القلبِ
ولكن غراباً سرق الفرحةَ
واغتال أزاهيرَ اللقاء

***

سيفُ جنكيز يقدُّ الحلمَ الكوريَّ ،
يمتدُّ إلى خاصرةِ الصينِ
ويستعرض في الأفقِ لمن ينسى
شظايا هيروشيما
والملايينُ التي تلهث كالقطعانِ
بين الماءِ والأعشابِ
تسترخي وتجترُّ غواياتِ لياليها
شقاءً ونعيماً
بعضُهم أسلم للشيطانِ روحَه
آخرٌ يشعل في حضرةِ بوذا
ورقَ الريحانِ كي يشفي جروحَه

ثالثٌ يهجس بالموتِ خلاصاً برزخيّاً
ريثما ترجعه الدنيا إلى أحضانِها
طيراً ، غزالاً ،
سمكاً ، أو خيزران
وعلى أكتافِ (غورا)(*)
تلتقي ريشةُ بيكاسو
بأسرابٍ من العشاقِ
في بحرٍ من الخضرةِ والدهشةِ
يستجلون آيات رؤاها
وهي تزهو كالدرر
والصدى الهاربُ من شيراز يرنو
باشتهاءٍ للدمِ الهاجعِ في حضنِ القمر
يا صديقي خفِّفِ الوطءَ
لئلا نوقظَ العشّاقَ من أحلامهم
تحت مناديلِ الشجر .

(*) غورا Gora قرية في جبال هاكونيه السياحية ، أقاموا في سفوحها المجاورة متحفا للفن العالمي في العراء . والزائر لابد أن يدوخ نشوة بين سحر الطبيعة وروائع الإبداع .

تَقيَّة

لا تَقُلْ لامرأةٍ إنكَ مرصودٌ
لنجمِ امرأةٍ أخرى
ولا تحفلْ بأن تنكشفَ الأوراقُ
إن الكذِبَ المعسولَ
من ملحِ الرِّجال !

***

وأنتِ يا سيدتي
إياكِ أن تبوحي
لرجلٍ بما يكنُّ القلب
جوانحُ الرِّجالِ ملأى
بدمِ الثيران !

أعراس ماجنة

- ١ -

آيةٌ من ندىً وهديلِ يمام
راشحٌ بوحُها من وراء السحاب
قَصَبٌ يكتوي صادحاً
في سريرِ العتاب
طفلةٌ لا تُطيقُ الظلام
مواعيدُها أينما سرحتْ
أزهرتْ بالنجوم
وحين تذوبُ الرؤى
في جفونِ الأقاحي
تقطفُ الشمسَ عن أمِّها خِلسةً
لتودعَها في حمى عُبِّها
وتنام .

- ٢ -

تفور الطَّبيعةُ نشوى
بأعراسِها الماجنة

ولا تتَّقي ما يحيقُ بأبنائها
من خطر
فمن يُشعلُ الطيبَ
في جنباتِ المعابد
كمن يشعلُ الشّهواتِ الطليقاتِ
في حلقاتِ السمر
تُعِدُّ البراكينُ أصفى ينابيعِها الساخنة
للظباءِ التي تتعرّى بلا حرجٍ أو حذر
مخافةَ أن يخدشَ السّترُ
أحواضَها الآمنة
ولو كان من ورقِ التوتِ
أو من نسيجِ القمر.

- ٣ -
أكان (فوجي) صاحياً؟
أم مثقلاً باـلخَدَرِ الثلجيِّ
تحت قبَّةِ الميلاد؟
لعلّنا كنّا على ميعاد..
يوم التقينا..
وانخطفنا في المروجِ حولَهُ
كأننا أطياف
كيف تناسى دمَهُ

بحيرةٌ . . بحيرةً
بلا ضفاف؟
وفي حنايا دفئهِ
تشابكت . . واختلطت
معالمُ الأجساد؟!

- ٤ -

المحيطُ الخرافيُّ يودعُ أسرارَهُ
في جيوبِ المحار
ويغفو على هدهداتِ المطر
تاركاً أهلَه عُرضةً للدوار
وفي غاشياتِ الأسى والضجر
يحاولُ أن يستعيرَ كتابَ الفصول
ليقرأَ ما خطَّتِ الشَّمسُ في لوحِهِ
من عِبَر
***
من يزيحُ الوشاحَ الضبابيَّ
عن جسدِ الياسمين؟
كاهنٌ يتبنّى طقوسَ الغجر
شاعرٌ غاص في لغةٍ من ندىً وحنين
فاحترق
راصدٌ يشتهي كوكباً موغلاً في رمادِ السكون

عاشقٌ رسم امرأةً من حريرِ الشفق
وانتهى في ضفافِ الجنون .

- ٥ -

في مرايا أيكةِ الشهدِ الموشّى بالرحيق
يرجع الشيخُ إلى وهجِ صباه
يطفح الليلُ بأنداءٍ من الحلمِ القديم
تزهر الأشياءُ بالوجدِ الحميم
وتصير امرأةً من شفقٍ
أو جُلّنار
سحبٌ من غبطة صوفيةٍ تختطف الروحَ
وتلقيها أريجاً مفعماً بالدفءِ
في وادي العقيق
وهي تختالُ مع الموجِ الذي جُنَّ عليها
واستطار
وأنا أبحرُ في آلائها
شِبهَ غريق .

- ٦ -

مدداً يا إلهي ، مددا!
كلُّ شيءٍ هنا عاصفٌ
يتخطّى شفيرَ المدى

خارجاً بالنهايات عن حدِّها الفلكيْ
بلا سببٍ - ربما - وبألفَيْ سبب
من سكينةِ بوذا
بإشراقِ طالعهِ الأنثويْ
إلى ما تحوِّشُ في عرسِها الدمويْ
سيوفُ الغجر
فأيٌّ المسالكِ تختارُ
كي لا تصيرَ إلى رقمٍ
في سجلاَّتهم ، يا ولدٌ؟ !
تحتمي برماد التقى
هارباً من سعار الجسد؟
- لو يقيك الهرب!
ترتمي مغمضاً في كمينِ الرياح
عارياً في جنونِ المطر؟
كيف تحيا؟ وكيف تعشقُ؟
كيف تعاشرُ جِنِّيَّةً من لهب؟
وتحتَكَ أرضٌ تميدُ بعشّاقِها . .
- مدداً ، يا إلهي ، مددا -
وفوقَكَ بحرٌ تفجَّرَ بركانُه باللظى
ولا سقفَ يحميك من هوله المنهمر
ودونك هوجُ الأعاصيرِ
فوّارة من فجاجِ الجحيم

ولا جِنٌّ يقوى على ردِّها
أو بشر
أيدركُ بوذا . .
متى أطلق الغمرُ تنّينَهُ . .
ما وراء الزبد؟
وأنت تفتّشُ بين مريديهِ
عمّن يفكُّ الرّصَد
وهل من ملاذٍ ترجّي
سوى أيكةِ امرأةٍ لا تبالي
بغير الجسد؟!

غربة صوفي آخر

«في مستهل الستينات مضى عبد الباسط الصوفي إلى غينيا لتدريس اللغة العربية ،لكن حمّى (مكادي) الإفريقية اختطفته . . .

وليس لك هنا إلاّ أن تقاوم رطوبة المحيط الهادئ وحرارته الخانقة . . لأن الحياة تجربة لا تتكرر ولا تستعاض . . .»

***

فاتحة الغياب

سِربٌ على الأفق المدمّى
في ضواحي آسيا
أقوى من الصوّانِ
لا ينتابه صدأٌ
وإن صدئ الذهب
سِربٌ من الخلاّنِ ،
أغلى من كنوزِ الأرضِ ،
أصفى من ينابيع الجبال
سربٌ من الريحان والدفلى
تحاصرهُ الظلال
ويكاد يخنقُه سؤال :
«هل بعتَ روحكَ
في بلاطِ العنكبوت؟
أو خفت من أشباحِه المرضى
فآثرتَ التهرُّبَ والسكوت؟»
- لا ، يا وجوهَ الخيرِ والبشرى
ويا أبهى رياحينِ الوطن

ما كنتُ ممن يأكلون لحومَ إخوتهم
ولا حتّى أعاديهم
وقلبي لن يكون
حجراً تحرِّكُه الضّغائنُ
والظنون
لكنَّ غيماً لا يطاقُ
يشدُّ حبلاً من مخالبهِ على عنقي
يُشوِّفني نجومَ الظهرِ في نومي
وفي صحوي
وفي غَبَشِ الخُمار
هل كان في لوحِ القبائلِ
من بديلٍ
لارتطامي بالمدى
بين اختناقٍ
وانفجار
هل كان لي غيرُ الفرار؟!
- مهلاً، فقد يسطو على أنفسِنا
ما ليس في الحسبان
والشيخُ أرهقه التّجافي
وهو لا يدري
من أين تُجلَبُ نعمةُ النِّسيان!
فلنتركِ الأرواحَ

تكمل هلوساتِ الوجدِ
في دبق السكون
ولنغلقِ الذكرى
على أسرارِها البيضاءِ
والسوداءِ
لا جدوى لمن خسر الرِّهان؟!
أهناك من جدوى
لمن كسب الرِّهان؟!
هل في فضاءِ اللهِ
من أفقٍ بلا أحزان؟
أهناك من بحرٍ
بلا موجٍ وحيتانٍ . .
ولا حتّى دوار؟
أم في كتابِ الغيبِ
من ركنٍ
لإكمال الحوار؟

- ١ -

قمرٌ في آخرِ الدنيا يناديكَ . .
فهل تخشى على الأحبابِ
من بردِ الليالي
في نهاياتِ خريفِ العمرِ

إن لبّيْتَ ميعادَ القمر؟
فانخطف عبر المدارات بلا ظلٍّ
ولا تحفلْ بفرسانِ التكايا
يتغنّون بمنهوكِ الرجز
فلدى بوّابةِ الميناءِ
نيسانُ يلاقيك بأسرابِ الغرانيقِ(*)
وأمواجِ اللآلي من أزاهير الكرز

- ٢ -

تبدأ الغربةُ
من سوسنةٍ في أرجوانِ القلبِ
تنشقُّ إلى نصفين :
نصفٌ يحضنُ الذكرى بإشفاقٍ
ويرجو لك ألا تفقد الرؤيا
ونصفٌ يتهاوى
في شعابِ الليلِ
آلافَ الشظايا

(*) الغرانيق أو الكراكي Tsuru (تسورو) من الطيور البيضاء الجميلة بسيقانها وأطراف مناقيرها الوردية ، وهم يتفاءلون بها . . ويدفعون الأذى عن مرضاهم حين يقوم الأطفال والنساء بصنع ألف دمية ورقية لهذا الطائر ، لأنه يعيش ألف سنة - كما يعتقدون - بينما تعيش السلحفاة عشرة آلاف سنة . إنها رمز العمر المديد .

- ٣ -

في السراديب التي تمضي
إلى حانةِ (ميشيما)(*)
وقد تُفضي إلى فردوسِ بوذا
تلج الأنفاقَ مرعوباً كوعلٍ
لم يرثْ من جذره المدفونِ في باديةِ الشامِ
سوى داءِ الفزع
في سراديب التَّعرِّي والتناغي والوجع
تغتلي رامحةً تترى خيولُ الكهرباء
وهي تُلقي بك من تيهٍ
إلى تيهٍ
فسبحانَ الذي أسرى بعبدِه
والفتى يخبطُ كالعشواءِ
في أدغالِ (رُبُّونْغي)(**)
ولا يدري متى إنجازُ وعدِه

***

(*) ميشيما (يوكيو ميشيما) : الروائي الياباني المعروف الذي انتحر سنة ١٩٧٠ وهو في الخامسة والأربعين .

(**) رُوبُونْغي Roppongi من الأحياء المشهورة في طوكيو وخاصة للأجانب ، وفيها عديد من السفارات ، فضلاً عن الحانات ومرابع الليل وفنادق الحب .

قيل لي عند التأسّي :
إنَّ أطيافَ القمر
ربما وافتك في أيلول أو نيسانَ
لا توصدْ شبابيكَ الأمل
وانتظرْ موسمَك المخبوءَ
في برجِ الحمل
لا تخفْ . . إنَّ بريدَ الشامِ آتٍ
في جناحِ الغيمِ ،
في عبٍّ المطر
***

أقبلتْ مكسورةَ الجنحينِ
واسترخت على صدري
كعصفورٍ مهاجر
قلت : لن أسألَ «من أينَ؟ . .
إلى أينَ؟ . .
ومن أنتِ؟»
ولكنْ ،
لا تنامي ها هنا . .
جوُّ القطار
يتنزّى بالكوابيسِ
وأشباحِ الطيورِ الغرباء

بيتُنا – أقصدُ (كوخي) –
ربما أقربُ من دارِكِ
في أقصى تخومِ الصينِ . .
هل يأخذنا ، يوماً ، بساطُ الريحِ
أو أشرعةُ الموجِ
إلى السورِ العتيد؟
عاجلتني نظرةٌ طافحةٌ بالخوفِ
كالخنجر في قبضة طفلٍ
مثخنٍ بالجوعِ :
«هل جئتَ مع السيَّاحِ
في قافلةِ الغربِ السعيد؟»
قلتُ :
أشجاري لها جذرٌ عميقُ الغورِ
من إبلا إلى بدرٍ
ومن مئذنةِ الأقصى
إلى آخر جرحٍ في بلاطِ الشهداء
كيف تستبقينَ أغصانَك بتراءَ؟
أهذا حلم الفجرِ البعيد؟!

***

سحبٌ غبَّشتِ المرآةَ
في ضحوةِ عينيها

دعاها هاجسُ الكتمان أن تهربَ :
«هل نرتشفُ القهوةَ
في أعلى مغاني طوكيو؟»
أحسستُ خوفاً مبهماً . .
- لا بأسَ ، هيَّا -
واعترتني رجةٌ ، موجُ دوارٍ عبثي :
أوقفي - أرجوكِ -
هذا الفرسَ الجامحَ
يكفي ها هنا
وارحمي عمَّكِ
يا ريحانةَ الصيفِ الذي ولَّى
ضلوعُ الخشبِ المنخورِ
لا تقوى على حملِ المزيد

***

تنحني نادلةُ الحانةِ . .
«فنجانين ، يا سيدتي ،
من قهوةِ التُّركِ الشهية»
- ربما ، قبل انكساراتِ الرؤى ،
كانت تُسَمَّى (عربية)! -
«اتركيها لحظةً تغلي . .
وزيدي نسبةَ الهالْ

أعيدي هالةَ الأحبابِ تزهو
في رحابِ النُّوْفرة!»(*)

***

- ضيفُنا المكسوفُ آتٍ
من بلادِ السندباد
فافتحي الشبَّاكَ
واختاري له إطلالةً
ينشرح الصدرُ بمرآها
ويهتزُّ الخيال

***

.. رشفةٌ أولى ..
وتنقضُّ الكوابيسُ
يكاد الحلمُ أن يطفرَ
من نافذةِ البرجِ
- تماسَكْ يا رجل
واستعِدْ حقَّكَ في عشقِ الحياة
ملكٌ أنت هنا في الطابقِ الستينَ ،
روحٌ مفردٌ لا نِدَّ لك

(*) النُّوفَرَة : مقهى شعبي معروف عند البوابة الشرقية للجامع الأموي في دمشق . وكان الأديب الساخر حسيب كيالي وأصحابه من الكتاب والفنانين مولعين بالجلوس هناك .

والمدى مملكةٌ فيحاءُ كالغوطةِ
بحرٌ من رؤىً يمتدُّ
من حريةِ الصوتِ
إلى راعيةِ الميزانِ
في صدرِ الفلك
.. رشفةٌ ثانيةٌ
يبتردُ الحلمُ ويخبو
أنت منبوذٌ هنا في رهبة الإعصارِ
تهذي .. دون مأوى أو كساء
وضيوفُ الحانةِ انفضُّوا
مع الفجرِ سكارى
وانتهوا كالغرباء
فلماذا يخلطون النفطَ
والإسلامَ
والإرهابَ
في بوتقةٍ واحدةٍ
دون غطاء؟
ولماذا سلخوا جلدَكَ مرّاتٍ
وخاطوه مع الليلِ
سراويلَ نساء :
«زوجةٌ واحدةٌ عندكَ ..
أم أربعٌ؟

هل ترغبُ في خامسةٍ
تغنيك عن جوعِ البريد؟»
شهقت عرّافةُ الحانةِ :
«باركْ جسدي
قبل صياحِ الدّيكِ
يا مولاي هارون الرشيد!» .

- ٤ -

حدّثوني ، عرضاً ، عن رهبةِ الزلزالِ
عن هولِ الثواني
ساعةَ الأرضُ تميد
والسماواتُ تدور
[وترى الناسَ سكارى . . .]
- صدق اللهُ العظيم .
أبداً لم يغفلوا أن يغسلوا روحي
بأنداءٍ من الذكرِ الحكيم
***
كيف تُمضي ليلَك الضّاري؟
ولا صوتَ صديقٍ يؤنسُ الروحَ
ولا ظلٌّ امرأة
يتولّى جسمَك المحمومَ

يجتازُ به موجَ الصقيعِ الحجري

***

يلبسُ الزلزالُ في الحاناتِ
شكلَ امرأةٍ
تعتصر الروحَ مع الأنفاسِ
في حشرجةِ النَّزْعِ الأخير
فإذا الأرضُ تمور
والسماواتُ تمور
وأرى الأشياءَ والناسَ سكارى . . .
كيف قاومتَ نداءَ الجسدِ الناريِّ
لم تلتمسِ الرّمّانَ في أشهى تجلِّيهِ
ولم تحفلْ بديكِ الجنِّ
يا شيخَ المعرة؟
هاتِ زوِّدني بما أُوتيتَ
من صبرٍ وحكمة
كيف تروي مارجَ الجمرِ الذي
يزدادُ في الليلِ استعارا؟
ووراء الشعرِ والخمرةِ والزلزالِ
نجمٌ
يشبه الشَّامَ . . ولكنْ
كلما حوَّشتُه في لهفةِ القلبِ
توارى .

- ٥ -

لم يكن قلبي معي عند اللقاء
كنتُ قد خلَّفته بين جراحِ القدسِ
مطويّاً على أشلاءِ طفلٍ
في جريدة
همستْ : هل نأخذُ (السّاكي) معاً
حتى شهيقِ الفجرِ؟
لكن (أكيكو) . .
وقفتْ دون التَّمادي في الشراب
فاستفاقَ الليلُ يهذي كغراب
وتلوّى في سراديبِ الأسى
نهرُ الغناء
وأكيكو . . طفلةٌ تدرس تاريخَ الحروب
وردةٌ مثقلةُ الرأسِ
بأوجاعِ ضحايا ناغاساكي
وأنا أقرأُ في مرآةِ عينيها
جنوني . . وهلاكي
قلتُ : هل أنتِ فلسطينُ
لكي أصلبَ في محنتِها عمري؟
دعيني . .
ليس في أفقي فلسطينُ جديدة
- يا دمَ الأطفالِ

في حُمّى ليالي (سراييفو)
معذرةً!
أيها الشرقُ الخرافيُّ العجيب
رُدَّ لي قلبي
لكي يشهدَ
ميلادَ القصيدة .

- ٦ -

كلما ضيَّعتُ في إعصارِها المحمومِ
أو في صحوِها الثلجيِّ
فانوسي . . ودربي
أشتهي كالطفلِ أن أحكي لها
سيرة قلبي
هي في الأرضِ مع الدولار
والسَّاكي
وأحلامُك - يا مسكينُ! -
ترعى في السحاب
أنت طفلٌ غادرته أمُّهُ
نهبَ المنافي
قبل عشرين انتحار

***

آه يا إشراقَةَ النُّعمى
ويا خمرَ القصيدة
نسي المغدورُ أن يبعدَ
عن خنجركِ الغالي
وريدَه
يا (مَسَاكو)!
ما الذي يفعله الحبُّ بنا؟
كركرتْ . . غرَّد ينبوعٌ من الغبطةِ
في أوصالِ غابِ الخيزران :
يا صديقي ،
ما الذي نفعله بالحبِّ؟!
قل لي . .
جسدي - حرِّيّتي . .
ملكي
ولا فائضَ في وقتي
لكي أسفحه - شرواكًا -
في صيدِ الذباب
فاتركِ العشقَ لفرسانِ الحكايا
والجواري
وافتتحْ باباً جديراً
بالحوار .

- ٧ -

يشرق الوجهُ المغوليُّ
ويجلو عنك ثاراتِ بني عبسٍ
يداريك لكي تغفرَ أو تنسى
دماً ما زال يغلي
في حنايا أمِّك الثكلى
فهل تملكُ غيرَ المغفرة؟
ليس بين الحربِ ، يا سيدتي ،
والحبِّ
إلا نيةُ الفرسانِ
فاختاري لنا وقتاً وركناً
لاختبار الرغباتِ المضمرة
ربما كنتم ضحايا مثلنا
ربما لم تقرئي تلك الفصولَ الدمويَّة
ربما تنسين قبلي
مثلما أنْسَوْكِ ذكرى
هيروشيما
ربما ننسى معاً . . أو نتناسى
في ظلالِ الحبِّ
أهوالَ العصورِ الهمجية

***

يسرق الليلُ حبيباتٍ من النجوى

ويذروها نجوماً في سماه
ولعينيها أفادي بضياءِ العينِ
لو أدرك ما يخفيه رأسُ القُبَّرة .

- ٨ -

يقبلُ الليلُ ويسترخي
غراباً هرماً في مقبرة
لم يكن سِربُك معتاداً
على جوِّ السهوبِ المقفرة
فاعتكفْ داخلَ تابوتٍ هلاميٍّ
من الشعرِ
أو اهربْ عبر أبوابِ السماء
علَّ أطيافاً من الشامِ توافيكَ . .
تردُّ الروحَ
أو تحنو على القلبِ الكليم
لمسةٌ تشعلُ مصباحَ علاءِ الدينِ
يصحو ماردُ الحلمِ القديم
- : هاتِ لي أشهى الرياحينِ
وأغلاهنَّ دفئاً وجنونا
تعبر الأفقَ ثريّا . .(*)

(*) ثريا الهلالي : عنوان رواية للصديق دياب عيد ، وفيها الكثير من أحلام جيلنا وخيباته ، فضلاً عن الدلالة الرمزية لهذا الاسم .

(آه من يقوى على النسيانِ
يا بنتَ الهلاليّ؟)
ثريّا . . يستحمُّ الكونُ في آلائها
تفتح للعشّاقِ فردوسَ المسرّاتِ
فمزّقْ خجلَ القريةِ واقطفْ
من جناها ما تشاء
ربما لم تكُ من جنسِ النساء
ربما جِنّيّةً كانت . .
وما زالت
يضيء الليلَ نهداها بنبعينِ
من الخمرِ أو الرُّمانِ
أو من خمرةِ الرُّمانِ
لما تتعرّى
تتعرّى . . .
تتقرّى . . .
تتمادى . . .
تحتويك
- أمهليني لحظةً ، باللّهِ ،
يا سيدةَ الغيثِ الحميم
علّني ألتقطُ الأنفاسَ
أو أدخلُ مصعوقاً
نعيمَ التجربة

واعلمي أنَّ الفتى
لا يرتضي في حبِّهِ
أيَّ شريك
أنسيتِ العنزةَ الجرباءَ(*)
والنبعَ القديم؟!
جلجلتْ ضِحكتُها..
أنَّ زجاجُ النافذة
وتهاوى.
ضحكها؟.. لا، أبداً
ما كان معروفاً بهذي القسوةِ النكراءِ
لم تسمحْ لِهاو
باقترافِ اللُّغةِ المضطربة
لم تكنْ تلك ثريّا
لم تكن تلك التي هامَ بها
صاحبُنا أحمدُ
فاختارت له صاعقةً موقوتةً
في عروةِ القلبِ
تلقّاها.. رضيا.
إنّه الرّعدُ الذي يطعن أحشاءَ السكينة

(*) العنزة الجرباء: من الأمثال الشعبية في ريف حمص أن العنزة الجرباء لا تشرب إلا من رأس النبع.

تاركاً قلبَك ريشاً نازفاً
بين طواحينِ المدينة
أغلقِ الشبّاك . .
لا جدوى من التّحديق
في ليلِ السكارى
وبريدُ الشّام . .
لا أطيافَ تستهويه في الأفقِ الضنين
فلتصُنْ وجهَكَ
من لفحةِ أنواءِ الحنين
ودعِ القلبَ على طيبتِهِ
مائدةً شاميةً
بين مئاتِ الأغربة .

- ٩ -

يرمح الدربُ إلى (إيزو)(*)
على زيقِ الخليج
وحقولُ الشّايِ

(*) إيزو : منتجع سياحي في شبه الجزيرة الممتدة إلى الجنوب من طوكيو ، ولها وقعها المحبب في الأدب الياباني وخاصة لدى كاوباتا وأوويه الروائيين الحائزين على جائزة نوبل .

تستدعي أريجَ الشيحِ
في باديةِ الشامِ
هل الذكرى ضناك الأبدي؟
إن تغُصْ حتى عروقِ الماءِ
أو تطفرْ إلى أوجِ المجرّاتِ
فمن ينجيكَ من لفحِ الأريج؟
الليالي عبّأتْ مجمرةَ العمرِ رماداً
فاشتعل في لجّةِ الليلِ
عسى أن تشعلَ الدنيا
بما يختزن الزيتونُ
من وهجِ الشرر
أو تناثرْ . .
كالفراشاتِ التي
أحرقها الحرمانُ ،
تاريخٌ من الحرمانِ
في مائدةِ السفح البهيج
غربةٌ . .
أو كربةٌ
أو لعبةٌ . .
آثرتَ أن تبلوَها
في عبثِ الرّيح
فهل تقوى على دفعِ الثمن؟

قلتُ :
لا بأسَ ، غداً أجمع أشتاتي
وأختارُ فراشاً
أبديَّ الليلِ
في حضنِ الوطن
وسواء كان مأواك هنا
حلماً شهيّاً . .
أو حُميًّا لوثة . .
أو واقعاً . .
زيَّنه العيشُ البهيميُّ
بأبهى ما ترى
أم لم يكن
فانتزعْ روحَكَ
من ذاكرةِ الأحبابِ
كي لا تتشظّى مرّتين
واتركِ الباقي لأهواءِ الزمن .

نيسان ١٩٩٣ - أيلول ١٩٩٤

تهويمات

إلى علي سليمان العنزي . . أيها الفارس البدوي الأصيل!

كيف تخليت عن قلوب الحور في اليابان ،

هارباً إلى صقيع القلب الاصطناعي؟

- ١ -

المدى غيمٌ هلاميٌّ
سراب في سراب
وبحيرات الندى والجمرِ
تمتصُّ لياليها دم العشّاقِ
لا تروى
فمن يطفئ شمساً
بالشراب؟
والفتى تلهو به الأمواجُ
تلقيه على شاطئها الصخريِّ
أو تدفنه في رغوةِ الرّملِ
فلا يسعفه زهو الشباب
يتعب الملاح من غرغرة المجدافِ
في مملكة الشهد المذاب
يقلب الفُلْكَ
فيطغى لهب الموجِ
ويرتجُّ العباب .

- ٢ -

هذه الليلة لا فجر لها
فتزوَّد للرحيل
بقناعٍ غجري
أو بحلْمٍ مستحيل

***

ما الذي ترجوه من إشراقة الذكرى
وإغراق الليالي
بالرحيق البابليّ؟
حينما ينزلق النجم على سفح الأفول
فانطلق خارج أعشاش اليمام النرجسيّ
وابكِ ما شئتَ
على تلك الطلول .

- ٣ -

في قديم الزمان
عبر العاشقان
واحةَ الجمرِ واغتسلا بالمطر
وكانت ثيابهما
من نسيج الشجر

في حنايا صخور الجبال

كان عشُّهما ملجأً للطيور
غابةُ الخيزران القريبة
قلعةٌ لاختزان الرماح
والمجامرُ عابقةٌ بالبخور
وكان الضنى موغلاً
في عروق الحبيبة .

- ٤ -

لم يكن في نيَّةِ العاشقِ
أن يصطاد وعلاً بمظلَّة
لم يكن يهجس بالوردِ أو الشهد
ولا في البال أن يختطفَ المرآةَ(*)
من تحت جناح السَّيفِ
أو يسطو على حلم الربيع
أطبق الليلُ على (إيدو)(**)
وأمطارُ المحيطِ العبثيّة

(*) من أساطير الشنتو اليابانية أن آلهة الشمس زودت حفيدها بالكنوز المقدسة الثلاثة (السيف والمرآة والجوهرة) ليعمر الأرض بدءاً من اليابان . والسيف رمز الرجولة والقوة ، والمرآة رمز الصفاء والأنوثة والاستكشاف ، أما الجوهرة فتشبه دائرة مقسومة بخط منحن بحيث تشكل حبتي فاصولياء ترمزان للرجل والمرأة والجنين - نواة تلك الحبة .

(**) إيدو : هي القرية التي تحول اسمها إلى طوكيو سنة ١٨٦٨ ومعناها (عاصمة الشرق) .

تجلد الأرضَ بشلاّلِ رصاص
وهي تمضي طفلةً في غابةِ الذئبِ
وقد أفردها ظلمُ القطيع
حين صارت تحت سقفٍ آمنٍ
فاضت طقوسُ الليلِ بالريحانِ
وانهار الصقيع

***

لم تزل أسئلةُ الإعصارِ تغلي
خارجَ الأبوابِ بحثاً
عن وعولٍ شاردة
والفتى يخطفه الوجدُ
فتزهو لغةُ الإشراقِ
تنهلُّ تباشيرُ التجلّي
حولَ عرسِ المائدة .

– ٥ –

يا أخت بوذا رحلتي أشرفت
على مداها لعبةً خاسرهْ
لا تسأليني كيف ضاع الفتى
في آخر الدنيا بلا آخرهْ
كنتِ رؤاه الزهرَ
لكنَّهُ

باتَ بلا رؤيا ولا ذاكرهْ
بنى وراء النجم أحلامَهُ
ولم يزل في هامش الدائرة !

VII

نخلةٌ
اسمُها فاطِمَة

الطبعة الأولى : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٢

البَحْر

آوِني يا بحرُ في عبِّكَ
أطلِقْ وهجَ روحي موجةً بيضاءَ
لا شطآنَ تغريها
ولا تُسكرها ترنيمةُ القاعِ
فتصغي أو تنام
آهِ ، لا تنثرْ على الصخرِ أو الكثبانِ
أحلامي شظايا
من يثير الدمعَ في جفنِ الغمام؟
كان لي لجمٌ من الوردِ اليمانيِّ
أداريه زماناً في الحنايا
كيف غارت منه أطيافُ اليمام؟

***

خلِّني يا بحرُ في حلمِكَ
ريحاً ، وهجَ برقٍ في سحابة
شرراً يُخفيه عشّاقُك
في جمرِ الكتابة

كان لي قلبٌ نسيجٌ
من رمادٍ ودخان
أشتهي نارَكَ في أرجائهِ
تحيي ربيعَ الأرجوان
أو أرى إعصارَكَ المجنونَ
يذروه على أطلالِ برجِ السرطان .

أبو ظبي - ٣ / ١٢ / ٢٠٠١

أميرةُ اللَّوز

تنهضُ في الحاكورةِ المجاورة
أميرةٌ سمراء
يشدو بها سِربٌ من الأطفالِ والصبايا
في مهرجانِ العشقِ ، في مواسمِ الفرح
يأوي إليها موكبُ الطيور
فتصدحُ الساحاتُ والزوايا
بالوجدِ والحبور
ولم تزل من حولها عرائس الفصول
تحتضن العشاق
وتطلق الرياح والخيول
وتمطر الدروب والآفاق
بالطيب والإشراق .
فتزهر الأسرار والحكايا
في لغة القلوب
قلبي يغلُّ في عرى بهائها
مجنَّحا بلهفةٍ من نور
يودُّ لو يجوب

أقصى خفايا سبعة البحور
لعله يؤوب
ومعه سيدة الرؤى بدور
وشالها الدريُّ مشكوكٌ
بألوانٍ من الهدايا .

١٨ / ٧ /٩٨

في جيرةِ الدانوب

ظلّي معي طيفاً من الأريجِ والسنا
لا تنفري من صحبتي عبر المروج
يا وعلةَ الثلوج
باتي هنا كالسرِّ في جوانحي
ولترسمي في لوحةِ البروج
بنفحاتٍ من رحيقِ الوجدِ والفرح
أقدارَنا
كما يشاء الجمرُ في عروقنا
وأعلِني في حضرةِ الشمسِ التي تصدحُ
في قلوبنا
كالوردِ لا يدركها شحوب :
«ما حاجة الناس إلى سعادةٍ
موعودةٍ في حُجُبِ الغيوب؟
ما دام حبنا
يفيض حتى يغمر الأفلاك والبشر
بالنور والغبطة والنعيم .»

***

يا آيةَ الشهدِ التي تسبح في البياضِ
يا ريحانةَ العنبر
لا تتركيني طائراً مستوحشاً
تلوكُه مجاهلُ الغربةِ والحرمان
طوفي معي في جيرةِ الدانوب
واستنزفي مكارم الدِّنان
رشّي على موزارت في حديقة القيصر
أحبَّ ما في الشرقِ من طيوب
ولوِّني أقبيةَ النبيذِ بالشموعِ والألحان
لا تنفري من عاشقٍ
طارت به لواعجُ الحنين
إلى حمى آلاثك الحميمة
هاتي يدَ القلبِ اشبكيها في يدي
ميعادنا المكتوب في سرائر القهوة
يجدِّد البخور في مجامر السمر
رشّي دمي على فراش الليلِ
حتى يشعل التّنورَ في الأوصال
بين يديكِ عازفُ الكمان
يطيرُ كالصوفيِّ في معارج الأشواق
يلتمس الوصلَ ، يذوب في السؤال
ولا رجاءَ بالوصال
وفي أقاصي حلمه

تلوح آياتٌ من الإشراق
أَ كنتِ بين اللحنِ والوتر
إذْ عصف الوجدُ بهِ
وأدركته سبحاتُ الحال ؟
أم كان في طورٍ من الجنون
ينتظر الإبحارَ في أندلس الرمَّان
قبيل أن تصدَّه العيون ؟
ولا قرارَ يُرتجى في غابةِ السكارى
لا تتركيهِ في جليدِ الليلِ كالغريب
يلوب في مجاهل المدينة
لا أهل ، لا أصحاب ، لا أمان
لا حبٌّ ، لا مأوى . . ولا سكينة .

فيينا - ٢٤ / ١٢ / ١٩٩٧

الصَّخْرَة

أبعدِ الخمرةَ ، يا ساقي
ودعْ لي فارغًا هذا القدح
علَّني أُودعُ فيهِ من شجوني ما طفح
صخرةٌ تغفو على قلبي
وخفَّاشٌ هوى ينهش من لحمي
وعيناها بحارٌ من فرح
لم تكن يا صاحبي بين طيور الليلِ
إلا شبحاً
ربما لم تكُ شيئا
وهي تدعوك لكي تبقى غريقًا
في عماك
ربما كنت سحابا زائفا
أو خريفا تالفا
لا ترى فيك رجاءً
لأعاصير الشتاء
ربما كنت دليلاً
أو سبيلاً لعبور الفاتحينْ

فاتركِ الساحة والبستان والدار لها . .
يكفيكَ من حلمِ الهوى
حفرةُ طينْ .

٣ / ٧ / ١٩٩٩

وَحْشَة

أيُّ عيدٍ موحشِ الساعاتِ
يغشاني بعيداً عنكِ
يا خمرَ انخطافي وجنوني
أتشهّى لوثةَ الحمومِ في إعصارِك الغالي
ولكنْ ،
دونه تنهض أسوارُ المنافي والسجونِ
كيف أبني من هشيمِ الروحِ ،
من أوشالِ أيّامي لنا . .
أو للوعولِ الشاردة
وطناً أو خيمةً وحدي
ولا من صاحبٍ أو سندٍ
إلا مراراتِ شجوني ؟

. . .

وَجَعٌ في لُبِّ كُمّثرى دمي
وشظايا من زجاجٍ في جفوني
بومةٌ تنقر في رأسي ،
خفافيشُ تنوشُ القلبَ ،

غيمٌ يخطف الروحَ
إلى تيهِ الظنونِ
وقطيعٌ من ذئابِ الليلِ
ينقضُّ على واحةِ أحلامي
ويغتال بحيراتِ سكوني .

٢٩ / ١ / ١٩٩٩

النَّخْلَة

يا أبهى إشراقاتِ المعنى
في لغةِ الريحان
يا أغلى أطيافِ الذكرى
يا ملكوتَ الروح
كوني أنثاي
كوني وطني/منفايَ الأنثى
أوّلَ أنثى ، آخرَ أنثى
كوني برزخَ وجدي بينهما
الأرنبُ غافٍ تحت شفوفِ الغيم
لو توقظه نار القبلة
لو ينفض عن برعمه الورديِّ الكابي
ثلجَ الأيام الغبراء
ويزلزلني أمواجا أمواجا
في ليلٍ أبديٍّ الرحلة
يتخطّفُ روحي إسراءً معراجا
هزّي أعطافك يا نخلة
تسّاقط آلافُ النجمات

وليزهرْ فردوسُ الأنثى
أمًّا ، أختًا ، عرسًا ، وهجَ سراب
خليني في ذروة إعصارِك
لا بحر لشطآن جنوني إلا أنتِ
ولا ميناء
كوني عاصفتي ، نيراني
كوني بركان الأهواء
نسغَ البدءِ المتدفقَ في الصلصال
وابقَيْ أنثى
الفردوسَ الأنثى
ودعي قرصانَ العشقِ الغجريَّ الدامي
من آلافِ الأجيال
يبحر في ملكوتِ الزهراء .

- ١٨ شباط ٢٠٠٠

وَمَضَات

- ١ -

من أين أبدأ رحلةَ الذوبانِ
في جسد القصيدة ؟
من وردة جورية في البالِ
ترعاها يدا أمٍّ
وترويها بأدمعها
إذا جفَّ الغدير ؟
أم من سحائبَ طافحاتٍ بالعبير ؟
أم من بلادٍ بيع أقصاها
- لكي يستكمل الأعرابُ سؤددَهم! -
بكرسيٍّ وحانوتٍ ورسمٍ في جريدة

***

في حنوةِ الوجدانِ نايٌ
لا يبوح بسرِّهِ
وهديلُ قبَّرةٍ سعيدة

***

يا بهجةَ القمرِ المسافرِ
في ملامحها النضيرة

ماذا تبقّى من كتابِ البحرِ
غيرُ سفينةٍ
غرقى
وبوصلةٍ
كَ
سِ
ي
رَ ة ؟!

- ٢ -

قلبي شراعُ قصيدةٍ
ينسابُ في لغةِ المطَر
وهواكِ زادُ مسافرٍ
خطفته قافلةُ الغجر

***

عاشقٌ يا أميرتي
والهوى ما له أمان
فارسٌ عاش مولعاً
بالطواحينِ . . والدِّنان
لم يزلْ وهجُ حلمِهِ
يشعلُ الكونَ زعفران

***

بيننا عهدُ صحبةٍ
مثله لم ترَ الجنانْ
لِيَ نهرٌ من الهوى
وله منكِ ضفتان
العصافيرُ أشعلت
في حماه أعراسَها
والفراشاتُ والحِسان
أسكري ليلَ حبنا
واجعلي منه مهرجان .

ـ ٣ ـ
في مدارِ الهاجسِ الشعريِّ
أسرابُ غيومٍ
أو ظباءٍ
أو يمامْ
ربما . . طيفُ امرأة
يتراءى لي محيَّاها . .
وينأى
تحت أنداء البروقِ الخاطفة
طفلةٌ تحملها الريحُ
إلى سدرةِ قلبي
قمراً . . أو عاصفة

***

دفِّئي روحيَ في عينيكِ
يا حريَّةَ البحرِ العظيم
فأنا نهرٌ يتيم
كان قلبي موجةً في بردى
يوماً
وروحي جُبِلت من ياسمينِ الشامِ
لكنَّ رياحَ الليلِ
شدَّتني بعيداً عنكِ
جرَّتني إلى قاعِ الجحيم
***
أطلقيني
عاشقاً يروي صداهُ
في غمارِ الياسمينِ
وأعيديني إلى عينيكِ
طيفاً من رحيق . . أو نسيم
أنتِ يا ريحانةَ الماءِ
ويا حرِّيةَ البحرِ العظيم
أنتِ يا أمطارَ نيسانَ
ويا وعدَ السماء
أنتِ لستِ امرأةً واحدةً
تسكنُ قلبي
وتعرِّي جوعه عبرَ منافي آسيا
أنتِ ملايينُ النساء .

- ٤ -

أنتِ والبحرُ توأمان
وأنا موجُكِ الطليق
قبل أن يولدَ الزمان
كنتِ لي الزادَ والرحيق

***

أنتِ لي نسمةُ الحياة
وندى طيبها الشهي
أنتِ وجدي وخمرتي
كبريائي . . حرّيتي
يشهقُ الحبرُ في الدواة
كلما مسَّ ريشتي
نفحاتُ اسمكِ البهي
كيف نحيا ؟ لا تسألي
ربما خاننا السؤال
حكمة البحر لا تُرى
في المواني ولا تقال
جوهرُ الكونِ عاشقان
أزهر الشعرُ فيهما
واحتوى شمسَه الهلال
غلغلي في جوانحي
واستحمّي بالأرجوان

جسدانا لا يعرفان
غيرَ روحٍ توحَّدت
كدمِ الكَرْمِ في الدِّنان .

- ٥ -

أشرعتُ بستاني على الجهات
لا سورَ ، لا أبواب
وقلت للرياح
- كرمى لعينَيْ نخلةٍ زهراء -
«لتسكني عندي كما الأحباب
ولتقطفي من شالها زنابق السماء .»
ولم يكن في البال أن تعترض الدفلى
على غوايةِ التفاح
أو أن يغار الشيحُ
من حلاوة العنَّاب .

- ٦ -

أنتِ هنا . . أنتِ هناك
وأنت في عذوبة الوصلِ
وفي غرابة الخيال
يا عنفوان الجمر في حمَّى دمي
ويا رذاذَ فكرةٍ بعيدة

هل نحن تاجُ وردةٍ وطلعُها
أم نحن ضِفَّتانِ في سؤال
حارت به القصيدة؟

***

في عالمٍ مستوحشٍ بارد
كان اللقاءُ كارتطامِ نيزكين
تشابكا . . واحترقا
حتى مشاش العظمِ
ثم التحما في كوكبٍ واحد .

بيروت - تموز ١٩٩٧

نخلةُ مَرْيَم

شهقاتٌ في ضلوع الريحِ
أم نايٌ على مجمرةِ الكثبانِ
لم يستوعب الوجد ضناهُ
فتهشّم؟
خففّي وهجكِ
عن عشّاقكِ الأيتامِ
يا نخلةَ مريم

***

تدخل النخلةُ في قلبي
بلا وعدٍ
كما تدخلُ داري
ساحباً موكبُها الشعريُّ
أسرابَ الدراري
وعلى آثارها تبدأ روحي
بالعروج

***

مِن تُرى يرسمُ لي وهجَ محيّاها
على برجِ الحمَل؟
ولْتَمُتْ في كيدِها ،
من غيرةٍ ،
باقي البروج
***
عندما غادرتِ البيتَ
كسيفاً
موحشاً
نثرت أطيافَها فيهِ
كأزهارِ البراري
وأحاطتني مراياها بأنداءِ المروج
***
ليلةَ انشقَّ جدارُ القلبِ
كي يحضنها
وأقامت في مغانيه طويلا
لم تجد فيه سبيلاً للخروج
***
تسكن الحلوةُ في قلبي
كما يسكن في الوردِ العبير
هي أمي ، طفلتي ،
حبي ، وفردوسي ..

ومنفايِ الأخير
تفرحِ النجماتُ إن شكّت بها
منديلَها الزّاهي
ويعتلُّ النسيم
كلما آنست في غمرةِ أشجاني
هلالاً من سناها
سرحت روحي بأرجاءِ النعيم
ومتى غابت تلوّى
في لظى الحمّى كتابي
وسريري
طفلةٌ أبهى حضوراً
في ليالي غربتي من شهرزاد
صوتها أزكى من الراحِ
وأحلى من مواعيدِ الحصاد
كيف أخفي لوعة الشيخ الضريرِ . .
ومحيَّاها رفيفُ النورِ
في صدر الأمومة؟
كيف يغفو وجعي بين يديها ،
وتؤاسي غربةَ الدهرِ العصيب
لمسةُ الدفءِ الحرير؟
واسمها . . كم أتشهى سكرتي فيه
إذا طافت به الذكرى

على إيقاعِ بوحِ العندليب

***

حطِّمي خابيةَ العنبرِ

خانتنا طويلا

واستعاضت

عن نبيذ الآلهة

بتوالي حفنةٍ

من لبنِ النوقِ العجاف

***

لوثةُ الرملِ تمادى سمُّها

موغلا في مهجةِ العظمِ

وطيَّاتِ اللبابِ المخمليّ

مَن سوى عينيكِ ينجيني

من التيهِ؟

متى ثارت شياطينُ العجاج

وتمادى في جراح القلبِ

إعصارٌ من الملحِ الأُجاج .

أبو ظبي ـ تشرين الثاني ٢٠٠١

واحةُ السَّراب

يتعبُ الياسمينُ معَكْ
وهو ينثر أشواقه كالسحاب
على شرفاتِ الطيورِ الغريبة
وينكبُّ ممتلئا بالنعاس
كلما لوَّحت بالعتاب
طيوفُ الحنين
ربما لم يكن فيه من أسرةِ الياسمين
غيرُ لونِ الإهاب
نسمةٌ من ثلوج الذرى
لا تحس بما أوجعك
فهل كنتَ تحيا بلا مهجةٍ أو حواس
وأنت ترى وعدَها واحةً من سراب؟

أبو ظبي - ١٨ / ١ / ٢٠٠١

شَجَن

وحدي وأنتِ بعيدةٌ
وحدي
أعرفتِ مثلي ما تخبّئُ
من ليالٍ لا تطاقُ
مرارةُ البعدِ؟
نايٌ من الأشجانِ
تأكل صدره
سحبٌ من الوجدِ
ليلي يضنُّ بلمسةٍ
من نعمةِ السلوى
وتلوكني دوّامةُ السهدِ
كلمات أصحابي كأمواجٍ من البردِ
والكأسُ يضجرني برقته
وسمومُه الصفراءُ لا تُنسي
ولا تُجدي

***

كيف التقينا وردةً وندى
لجأا إلى بردى بلا وعدِ
كيف التقينا
وافترقنا . .
ياضنى روحي
غرباء نسأل عن لقاءٍ
لا سبيلَ إليهِ
يا الله . . كم نرجو ونستجدي!

***

من علَّم الأطيارَ أن تأوي
إلى كنفِ الدوالي
ساعةَ الصَّهدِ؟
من دلَّ أحزانَ اليتامى
أن تُريحَ غيومَهَا عندي؟

***

وحدي وأنتِ بعيدةٌ
وحدي
هل في طقوس الموتِ
يا ريحانتي
أقسى من البعدِ؟

دمشق ـ ١٢ / ٥ / ١٩٩٨

غياب

كانت هنا
كانت هنا
لعلها ، حقيقةً ، كانت هنا
إن لم تكن طيفاً مضى
منسرباً عبر شروخِ الذاكرة
لكنما أنفاسها . . ،
يا سحباً من ياسمينٍ ،
لم تزل هنا
ولا يزال موسمُ الدفءِ هنا
ولا تزال الرائحة
فكيف لا أراها؟

***

متى يعود طائر البشرى
إلى الحمى؟
يغسل أوجاع الغياب والضنى
يجلو مرارات العمى
ويزرع الديار بالنجوم؟
يا جمرةَ الحنينِ

يا نوّارةَ السَّنا

كيف أسندُ رأسي إلى غيمةٍ
من رحيقِ الدوالي؟
لا تكونين شمساً لها
تكلِّلُ بالوردِ ريشَ خيالي
وتنصبُ أرجوحتي كرفيفِ القطا
في رحابِ السّما؟

يا لغةَ الرمّانِ والأقاحي
كيف اختفى بهاؤها؟ . .
ولم يزل
في عبق القهوةِ من رضابِها
نيلوفرٌ أندلسي

***

من علَّم اليمامَ في غيابِها
أن يشعلَ الهديلَ بالشجن؟
وطيفها يحنو على قلبي
يعصب ما صادف من جراحِ
بنفحاتٍ عذبةٍ من خمرة التفّاحِ
يهيم ليلي في مدارِ وهجها
وينتشي في طيبها صباحي .

دمشق ـ ٢٣ / ٤ / ١٩٩٨

قلبٌ واحدِ

أشرق النَّيروزُ في مملكةِ اللوزِ
وأهدانا نشيدَه
واستعاد القمرُ الزاهي صباهُ
من فمِ الحوتِ
ولم يبخلْ علينا بلياليهِ السعيدة
اسندي صدري إلى صدركِ
يا نخلةَ مريم
إن قلباً واحداً يكفي . .
لمن آواهما نيسانُ
في أندلسِ العشقِ
وأنعم

أطبقي جرحي على جرحكِ
كالجفنين في أرجوحة الحلمِ
وضمّي خافقي الواهي
إلى صدركِ
إن دارت بنا غاشيةُ البردِ

وكابدنا جليدَه
إن قلباً واحداً يكفي
لإشعالِ صباباتِ القصيدة .

نيسان ـ ٢٠٠٠

انخطاف

على نهرٍ من الأحلامِ
يهدلُ صوتُها العذبُ:
«غداً . . ستكون حراً كالسحابةِ . .»
يا نسيمَ الوعدِ ، بارِكْني بفيضٍ منكَ
حتى يزهرَ الحبُّ
معاً . . سنكونُ في غاباتهم
كالريحِ والنارِ
وفي خلواتنا كالماءِ والخمرِ
معاً . . سنكونُ
لا شاةٌ . .
ولا راعٍ . .
ولا ذئبُ!
معاً كطفولة الأنسامِ
لا حقدٌ . .
ولا شكوى . .
ولا حربُ
سماواتٌ ، بساتينٌ من الأفراحِ

تزهرُ عبرها الأحلامُ
والشُّهْبُ
وكنَّا مثلما رَسَمتْ لنا عشتارُ
طيٌّ سرائرِ اللَّوْحِ
لنا جسدان عصفورانِ
ملتحمانِ في أيكة
ولكنْ ، روحُنا واحد

***

لمن يتهلَّلُ الشفقُ البهيُّ
بوردةِ البشرى
إذا شحَّ الهواءُ أو الضياءُ
ولم تكوني بلسمَ الجرحِ ؟
وتخطفني مسرَّاتٌ . .
بحارٌ من سلافِ الوجدِ
أفلاكٌ من الصبواتِ
من يقوى على إدراكِ
ما في لوعةِ العشّاقِ
من فرحٍ جنونيٍّ
ومن يقوى على البوحِ؟

١٣ / ٨ / ١٩٩٨

عِيدُها

عيدها هلَّ علينا
باحتفاءٍ عالمي
وردةٌ حمراءُ تشدو
بجلالِ الموكبِ الأبهى
وآلاءِ الحنانِ المريمي
أنتِ يا سيدةَ الكونِ
وينبوعَ الحضاراتِ
من المايا إلى الصينِ
إلى سرِّ الجمالِ البابلي
لو تمس الشمس أطيافَ محيَّاكِ
لما غابت عن الطينِ الشقي
كيف لا يرقص قلبي فرحا
كلما روّى صداه
وابلٌ من حبك العذب الشهي؟
قيل لي : قلبك مكسورُ الجناح
فاحترس ،
إياك أن توغلَ في بحرِ الجميلاتِ

ولا تأمن غوايات الملاح
أنا أدرى بالغيوم الخضرِ
تزجيها إلى روحي
وبستاني
مواعيد الرياح
موسم الدرّاق في الصدر
وعيد الخمر في بحبوحة الثغرِ
وجمرُ الآهِ . . . في منحدرِ الدلتا ،
فهل يبقى سوى طقسِ الجنونِ الغجري؟
نعمةٌ أن تُغرقَ الأمطارُ لي داري
وتجتاحَ الفراشاتُ أزاهيري
وحمّاها تغطّيني
وكرمي مستباح
كلما ضاقت بيَ الدنيا
وعضَّ البردُ مسعوراً على قلبي
أفاضت حوله من دفئها
ألفَ وشاح .

٨ آذار ٢٠٠٠

رَيحانةُ المِيماس

بين ديكِ الجنّ والعاصي
أرى عصراً جديداً
من جنونِ الأسئلة

***

تفتح الخمرةُ في أجنحةِ الليلِ
كوًى بيضاءَ تندى بالرؤى والأخيلة
تَهَبُ الغيمةُ أشهى دمها
لابتهالاتِ الفصولِ المقبلة
وعلى عريِ الفراشاتِ
وأحلامِ البراعم
تنحني ريحانةُ الميماسِ إشفاقاً
إذا ما هاج ثورُ الزّلزلة!

سفنٌ أيامنا لا ترهبُ الموجَ
وإن ضلّت مراسيها دهوراً
وتناستها على أرجوحةِ الغمرِ
مواعيدُ الرياح

كوعولٍ في سباخٍ موحلة

***

وأنا العاشق ، يا حوريَّةَ البرقِ
دعيني شرراً . . لا ينطفي
أو فتيلاً
في هشيمِ المرحلة .

حمص - ٢٥ / ٦ /١٩٩٧

تهويمات

- ١ -

أنتَ هنا وحدَك

فكيف تبني في سباخِ غربةٍ

من السرابِ مجدَك؟

الحبُّ كان غيمةً

من شجرِ الآلاء

تبدَّدت طيوبُها بين رمالِ الغرباء

فلا تُضعْ في ندبِها رشدَك

أنت هنا وحدَك

الأرضُ كانت أمَّك الأولى هناك

أميرةَ الرمَّانِ والدفلى

مرضعةَ القيصومِ والأراك

ومهرجانَ عشقِك الأغلى

مَن جرَّها مِن شعرِها؟

من كسر الرمحَ إلى عكازتين

ومن أذلَّ كبرياءَ الخيزران؟

من لوَّث البهاء

وأخرس الشلاَّل؟
والتهم الثديين والمناسكَ المحرَّمة؟
وأنت تهذي ساهراً وحدَك
تولد كالإعصارِ في لجَّته . . وحدَك
تخوض أهوالَ الضنى وحدَك
وعندما تأوي إلى سكينةِ التراب
تبقى سؤالاً عارياً وحدَك
لتنهبَ الوحوشُ ما عندك .

ـ ٢ ـ

ليلُ المنافي وحشةٌ غابِيَّةُ الأسرار
وأبو العلاء يجوس في أدغالها
دوَّامةٌ من نار
ترك العمى للمترفين
ومضى إلى وهجِ الينابيعِ البهيةِ
هازئاً بضراوةِ التيَّار
وعبيدُ روما صورةٌ أخرى
يكرِّر نسجَها عبثُ الرياحِ
مع الرمال
ضاقت بهم سُبُلُ انتزاع الخبزِ
من كبدِ الرمال
ولم تضِقْ بهوانِهم

لغةُ التكايا
بين أروقةِ المساجد
الماءُ موفورٌ هنا . .
والظلُّ بارد
وعلى المروجِ تكوَّرت أشباحُهم . .
يا بهجةَ القطعانِ تسترخي
وتغنيها الصنادلُ والزنودُ
عن الوسائد!

- ٣ -

من جروح البوادي
يهل محيًّا فلسطينَ
نهراً من الشهداءِ الرياحينِ
ذكرى حروبٍ تلاشى صداها
وأهوالَ كارثةٍ قادمة
ينشر البحرُ في حنايا سهادي
تهاويلَ أسرارِه الغائمة
وعلى وجعِ الناي في آخر الليلِ
أسكب روحي وأشعلها
شفقاً ضاحكاً
في رؤى فاطمة .

٢٠٠١/١٢/١٨

العنبر ٢٤

الليلة الأولى

لن أسمح لهذه البومة أن تستوطن ذاكرتي
تحت أي قناع كان
لا النوى
ولا الغياب
ولا النسيان
فالحبيبة تستريح في سرير القلب
وإن حرمت عينيَّ من احتضانها
وحرمت يديَّ من قراءة بساتينها
بآلاف العيون المزروعة في الأصابع
وفي سائر الأوصال
أكان وجعا تحت الثدي
أم ضيقا في الأنفاس؟
ويماماتٌ بيضاءُ من ضواحي آسيا
يرسمنَ أصداءَ الوجيب
ويرصدنَ تموُّجاتِ الشهيقِ والزفير

ويختبرنَ كيمياءَ الدم
وأنا شظيةٌ من حجرٍ غشيم
لا يصلح للبناء . .
ولا للاتكاء
أنا غصنُ لوزٍ معطوب
فكيف أسند نخلةَ الروحِ المائلة؟
وغاشيةُ القيظِ لا ترحم
وشاطئُ الضَّبِّ لا يجيرُ ملهوف

***

أيكة صغيرة كانت أرحب من الكون
واليوم تخنقني بضيقها
فكيف أبيت وحدي؟
وصفية الروح هناك
تحت الأغطية البيضاء
معلَّقة كوتر القيثارة
بين رجة القلب
وانقطاع الأنفاس
وأنا جثة هامدة
تنتظر استكمال أوراقها
في ثلاَّجة معطلة
وهي هناك – أدري –
ربما جفاها النوم . . أو كاد

وهي خائفة على فتاها العاشق ،
طفلها العجوز
من ضربةِ الشمسِ في وحشةِ الليل
آه ، يا غالية
آه ، يا سيدةَ الغوالي
يا ريحانةَ الفؤاد
مكانُكِ هنا . . لا هناك
وعرشُكَ هنا تحت الخلجاتِ الخائفة
وبين تُوَيّجاتِ الضياء
وزمانُك هنا . . لا هناك
بين آيةِ الكرسي
وسورةِ مريم
أحلاماً سعيدةً ، يا غالية
إنَّ أذانَ الفجرِ يقترب .

١٩٩٩/٤/٢٤

الليلة الثانية

مشرقةٌ دائماً
كأزهار العشق
يطفر القلبُ أربعين خريفاً
إلى الوراء
كلما احتضنت العيون بهاء المحيَّا
من أين جاء تعبُ القلب؟
وكيف تسلَّل هذا اللصُّ الغادر؟
كيف تفتحين له الشُّباك . .
وتسمحين له بالاقتراب؟
أنسيتِ جنونَ غيرتي
حتى من طيور السند العجفاء؟

صباح اليوم
تناولت المتة معكِ . . في وحشتي
وأنتِ هناك
أزيدُ السكَّرَ لكِ قليلاً

فالنخلُ مولع بالحلاوة كالأطفال
وأزيد الماءَ الباردَ لي
لأُهدِّئ الجمرَ في قلبي
أين يداكِ ، يا غالية؟
واحدةٌ تسكبُ الماء
والثانيةُ تعانقُ يدي
وهواءُ المُكيِّفِ دائخٌ
كم هو محظوظٌ بمداعبةِ شعرك
والشبّاكُ المكشوف دائخٌ
حين تستندين إليه وتُطلّين
لتجعلي الفضاءَ أرحبَ وأبهى
وسماء الربيع دائخةٌ
وهي تستحمُّ في عينيك
لكنَّ الكأسَ تنتظرُ باردةً
وأنا غارقٌ في أحلامي معك
. . غداً لن تكوني هناك
لن أسمحَ لنفسي أن تكوني هناك
مكانُك هنا تحت رفيفِ القلب
وزمانُك هنا بجانبي
قلبٌ واحدٌ يكفي عاشقَيْن .

٢٥ / ٤ / ١٩٩٩

الليلة الثالثة

تتوهَّجُ الدَّارُ بالحضورِ البهيّ
وتزهر الروحُ بطيبِ اللقاء
الأيكةُ الصغيرةُ تتسع
وتحتضنُ الكونَ من جديد
والزمنُ يتوقَّفُ عند زاويةِ النهار
عروساً تتأمّل وجهها في المرآة
ثم يتابع الجريان
ليواكب نشيد القلب
تاركاً مواعيده معلَّقةً
على حافَّةِ السرير .

٢٦ / ٤ / ١٩٩٩

قلبُ الشاعر

كان قلبي كوكباً في بردى
يوم اصطفوه بالرحيق السلسلِ
كان برجَ القلعة الخفّاقِ
في صدر حلب
وهو في شرفة أروادَ منارة
رجعُ موّال المحبين على الميماسِ ،
بوحُ الوجدِ في عرسِ النواعيرِ
ونايُ القمرِ الزاهي على مجدِ الفرات
إنه اللحنُ الذي يعرفه البيدرُ
والغيماتُ واللوزُ
وأعراسُ الحقول
وهو بين الأهلِ
أو في وحشةِ المنفى
فمُ الحريةِ الظامي
وميزانُ العدالة
كان سيفاً في رحابِ المسجدِ الأقصى ،
هلالَ المئذنة

وشموخَ العزِّ في جرحِ الجنوب
كان موجاً في حنينِ النيلِ ،
وهجاً في ليالي دجلةِ الخيرِ
وفي صنعاءَ مازال قصيدة
نخلةً شمّاءَ في حضنِ الخليج
كيف يسطو شبحُ الموتِ على قلبي
وفيه كلُّ هذا الحبِّ؟!
يا قلبي كفى
لست في أمتك الجرحَ الوحيد
وغرابُ البينِ ما زال هنا
أقربَ من حبل الوريد
فانطلقْ في كلِّ أرضٍ كوثرا
وانسكبْ في كلِّ قلبٍ عاشقٍ
لحناً جديد
كيف تقوى صخرةُ الموتِ
على خنق النشيد؟!

أبو ظبي ـ ١١ / ٤ / ٢٠٠٠

عَصرٌ حَجَرِيٌّ

غيمةٌ من فلكٍ آخرَ تغشاني
لكي تأخذني في شالها
باحتفالٍ عبثي
بردى كفٌّ عن النجوى
وبات الوردُ في واحاتهِ
ذكرى رمادٍ طللي
لم تغب ذاكرتي بعدُ ،
ولكنَّ الغراب
يعبر البابَ لكي ينهش قلبي
راشحاً عبر شقوقِ الليلِ
من شرفةِ عصرٍ حجري

***

خائفاً ينتبه الصبحُ على رجعِ الدَّوِي
وعلى الأرضِ شظايا
ربما كانت لقلبٍ أو رئة
أو يدٍ تكتب تاريخَ السعارِ الدموي
لم تكن أطلالَها

تلكَ التي هام بها نهرُ الضحايا
إنه قلبك ، يا مسكين ، قلبك
يتلوّى في حضيضٍ مدني .

شباط - ١٩٩٨

أَيقونةُ المعلاً

إلى طلال معلا . .مبدع تلك الأ يقونة

وصاحب «موت الماء» .

أيقونةٌ شرقيةٌ من برتقالِ الرُّوح
ملفوفةٌ بكستناء بابلي
وثوبها ترشُّه ستٌّ حبيباتٍ من الرمان
ترتشح الخضرةُ من صفرتها العميقة
كأنما طفولةُ الفتى
رُدَّت إلى أمومةِ البستان

جزيرةٌ طافيةٌ
على محيطٍ غامضِ الزرقة
وفي الأعالي آيتان . .
من وجع البخور في احتراقه
أو من حنين الخيزران
طفلان مصلوبان في العراء
تباعدت سوقُهما
وارتفعت أيديهما ملهوفةَ الرجاء

أمام وهج الخشبِ الناريِّ

تغفو دميةٌ مصلوبةٌ
لعلها قربان
هل يُسعِدُ العاشقَ أن يحيا بكلٍّ هذه الحرقة؟
أم يملك الصوفيُّ من دنياهُ
إلاّ هذه الخرقة؟

رسالةٌ حروفها مقطوفةٌ من كوكبِ الطفولة
كلُّ نعيمٍ خلفها جارٍ بلا حدود
وكلُّ من يقوى على الولوجِ في أسرارِها
مفقود

لا ترحلي عن شاطئ الأحلامِ
يا سفينةَ الخلود
ولتحضني بدفئكِ الكونيِّ
قلبيَ من برودةِ الأيّام
وحاذري أن تقرئي
على طقوس عشقنا المجنونِ
موتَ الماء
لا تبرحي هذا الغموضَ المشتهى
وكوني
بوّابةَ الروحِ إلى السماء .

الشارقة - ٢٦ / ٩ / ٢٠٠٠

الرّمال

إلى (أبو عار) جمعة اللامي . .

كاتباً مبدعاً ، صديقاً حميماً . . وإنساناً نبيلاً

ذكرى لقائنا الأول في سكينة أبو ظبي – أيلول ١٩٩٨

ورمز مودة لا تقوى على طمسها معسكرات العمل وأحوالها المزرية .

شبحٌ طار من بردى
هاجساً باجتراحِ القصيدةِ
في عريها السلسبيل
وقبَّرةٌ هجرت سِربها
وتهاوت . .
على بيدرٍ من قشورِ النِّمال
وقنَّاصةُ السوقِ من كلِّ فجٍّ
تلوِّح بالخاتمِ النووي
وتخفي ثعابينَها
في سقوفِ النَّخيل
فمن شبك الحلمَ في عروةِ الغيمِ
حتى بياض التلاشي . .
ولا من دليل ؟
ولا زادَ . . . .
لا شيءَ في الكونِ
إلاّ فحيح الرمال
رمالٌ رمال

مدنٌ تتباهى بأبراجها . .
جزرٌ ضاق عن دائها جلدُها
فاحتمى بالورم
سفنٌ مثقلاتٌ بزهوِ القراصنةِ المترفين
ولكنها من رمال
ربما . . من رمم
أتترك للبحر أقبية الملح والزلزلة . .
عرائس مجلوَّة بدم المرحلة؟
يدور بها زمن من رمال؟!
رمالٌ رمال
أفقٌ شجرٌ بشُر من رمال
وبحرٌ رمال
على شفرة القيظ ألمح وجهي
كندَّاهةٍ من رمال
وتفترش القلبَ في عريهِ
موجةٌ من رمال
حبنا يستعيد صباباتِ قيسٍ وليلاهُ
في خيمةٍ من رمال
تنتهي ذكرياتي كما ابتدأت
نتفاً من سرابِ الصحارى
وزوبعةً من حنينِ الرمال
رمالٌ رمال

***

المصابيحُ في مدينةِ لقمانَ
تغزو بروجَ السماء
والعباءاتُ تخنقها بالسواد
وأنتِ تحيطين قلبي بلطفِ التجلّي
وفيضِ البهاء
ولكنَّ روحي مطوقةٌ بالرماد
رمادٌ رمال
رمالٌ رماد

***

صديقٌ يجرُّ خطايَ إلى حانةِ البحرِ
كهفٌ تهزُّ الشموعُ سراديبَه الشاحبة
غزالاتُ باكو وتبريزَ تختالُ
بين الموائدِ فاكهةً سائبة
والضيوفُ سكارى أمانيهم الخائبة
أطالع في زبدِ الكأسِ غربةَ وجهي
وأدفن في سمِّها الزئبقي
مرارةَ أياميَ الغاربة
رمالٌ رمال

***

والرمالُ فراشٌ من السندسِ الفارسي
تجدِّد فيه المها عشقَها
وتنفحه بشذا خصلاتِ القمر

يطيبُ لسارقةِ النارِ في أيكهِ
أن تصيرَ إلى مطرٍ من حنين
وتكسو طقوسَ الليالي
إذا أينع الجمرُ في كرمِها واختمر
غيوماً من الياسمين

***

لم أغادرْ بعدُ
لكنَّ طيوراً من رماد
رسمت وجهي على بابِ الرحيل
كيف أبني مدنَ الأحلامِ
في بحرٍ من الكثبانِ والريحِ
وما في اليدِ من بوصلةٍ تهدي
ولا يُرجى إليها من سبيل؟
كيف أجتازُ شباكَ الموتِ
في أطوارِ تيهي وانكساري
وأنا أعصرُ من رمّانةِ القلبِ المداد؟
آهِ من ندّابةِ الموجِ
ومن أطيافِ فرسانٍ
يوشّيها رذاذٌ من صهيل

***

يا إلهي ، لا تُطِلْ فصلَ احتضاري
مهجتي كرمٌ تلاشى بين قطعانِ الجراد

رُدَّ عن شيخوختي سيلَ المراراتِ
وهبني قبساً من عزةِ الصبرِ الجليل

***

دار أمي وأبي يغمرها النسيانُ
في باديةِ الشيحِ
ويطويها زمانٌ يتباهى بالفساد
كيف تحتالُ على الموتِ
وتغشاني؟
ولا عنوانَ للمنفى
سوى ذاكرةِ الرملِ
وموّالِ الحصاد

***

مدنٌ تنمو على حاشيةِ الزيتِ
خلايا للمواعيدِ ، قلاعٌ كالفطور
وقصورٌ زانها صمتُ القبور
وقتها . . غاص به النومُ أو الموتُ
إلى غيبوبةِ القاعِ
فلا تحلم بأن ينهضَ من سكرتهِ
قبل النشور

***

غابةٌ من رمال
وأنا هائمٌ في مجاهلها

أستشفُّ ينابيعَها
وأداري لظاها
لعلّي أوسّد رأسي على حجر آمنٍ
في مدار الظلال
غابةٌ . . .
لست أدري أداخلها عشتُ
أم كنت خارجها؟
أنا شبحٌ أم بقايا بشر؟
وهل كان أهلي وصحبي من الجنِّ
أم من جزائرَ مغمورةٍ
في دياجي سقر؟
***
أحس روحي جُبِلت
من وجع الرمال
أحسها تشكّلت واختمرت
في عنبر الرمال
موتي حياتي والمدى بينهما
فواصلٌ من هذيانِ الريحِ
في قيثارةِ الرمال
***
تحدّثني حكمةُ الرملِ
أن العروش التي نبتت كالفطور

في نفاياتِ هذا الزمن
سوف تأوي إلى جوفه سيرةٌ فاسدة
بلا شاهدٍ أو كفن

***

والرمالُ مرايا أرى الكونَ فيها
وأجلو كوامنَ روحي
الطغاةُ هنا تحت قوسِ السماءِ
عراةً كما ولدوا
والمساكينُ أيضاً عراة
هنا تخلع الروحُ ما كدّست حولها
من خضارِ الدّمن
أحيٌّ أنا . . . في العراءِ الخلاسي؟
أم رِمّةٌ في توالي كفن؟
أم لعل الفتى فُضلةٌ من طلل
لم يزل وشمُ خولةَ فيهِ
ومسكُ الثريا

***

في رحابِ المرايا . . .
أراهم يمرون خطفاً
ويسّاقطون شظايا . .
هباء . . .
من طواغيتِ روما

إلى جنرالاتِ طاحونةِ الشرقِ
سيلٌ من العربات الأميراتِ
محتدمٌ بالخيول
رِمٌ . . وطلول
وتاريخُهم جيفٌ وطبول
مرايا أطالع في قاعها الرحبِ
مأساةَ قومي
وأبني من القهرِ سوراً
ليفصلَ ما بين دهري ويومي

***

في وميضِ السرابِ المداجي
يلوح له وجهُ أنثى
كأنَّ الفتى كان يعرفها
جارةَ الرملِ كانت قبيل اختلاطِ الظلال
ذئبةٌ عشقت نفسَها وتمادت
لتحجبَ لذَّتها بالتهامِ الرجال
مِرجلٌ . . ويفور
نشر الطلُّ رقَّته في حنايا صباها
ولكنْ
يومَ أودى بصاحبها بردى
وهي تستعرض الريشَ
في دوحةِ المهرجان

لم تسل نفسها من أعدّ الوليمة
ولم تلتقط ما وراء السؤال
ألم يبقَ في القلب غيرُ الصخور؟

***

والرمالُ جيوشٌ من الهندِ والسندِ
تلتهم التمرَ والماءَ
والخضرةَ الزاهية
وتعتصر اليابسة
وفي البالِ ذكرى أرقّاءُ روما
تبارك ثورتها اليائسة
وتشدو بأطيافِ حرِّيةٍ لا تُنال
والقطيعُ الهلاميُّ غافٍ على سندسِ العشبِ
يجترُّ طقسَ المقيل
ويرنو إلى شرفةٍ نائية
ليس فيها عبيدٌ ولا جائعون
ولكنها تختفي خلف أبخرةٍ
من حرائق جيل

***

رحلةُ البحرِ محكومةٌ بالدُّوار
لا تجازفْ . . .
وعشْ قانعاً بالرمال
[سآوي إلى جبلٍ] غمغم الزهوُ في رأسهِ

- كان يحلم بامرأةٍ من شموسِ الذرى -
ولا عاصمَ اليومَ من أمرهِ
في جروفِ الرمال

***

لماذا تدوِّخني سيرةُ البحرِ؟
أذهل عن ملكوتِ الرمال
[وقيل : يا أرضُ ابلعي . .
ويا سماءُ أقلعي .]
كيف أقرأ في سورةِ الماءِ
آيَ الشروقِ وآيَ الكسوف
وأرسم في جسدِ الموجِ وهجَ الحروفِ
وأمحو مواتَ الحروف؟!

***

والرمالُ انشطارٌ مدمّى إلى كوكبين :
واحدٌ من كهوفٍ وأقنعةٍ
طافحٌ بالحريمْ
وآخرُ من لبنٍ ونبيذٍ وتمرٍ . .
صروحٌ مباركةٌ بفحولِ الرجال
وبينهما برزخٌ من دمٍ وزبد
يتسلّى بباقي البشر
وهنا . . في إسارِ العمى والتشظّي
كيف تبقى يدانا . .

ـ كما في طقوسِ العناقِ ـ
يداً واحدة؟
كيف نبقي على جسدينا . .
ـ كما يشتهي عرينا ـ
نخلةً واحدة؟!

***

يسأل الموجُ عرّافةَ الرملِ
تحت رفيفِ المطر :
كيف يمتزج البرقُ والرعدُ
طيٌّ نسيجِ الغمام؟
ومن أودع النارَ تحت أديمِ الحجر؟
يا رمالَ الصحارى
يا رمالَ المدن
يا رمالَ القصيدة
كيف أطوي كتاباً يضيءُ
بأوراقه الصفرِ دربي؟
وأفتح للزبدِ العالميِّ خزائنَ قلبي؟
وطواحينُهم لم تزل باشتهاءٍ
تلوك جراحاتِ أرضي وشعبي

***

لغةُ الرملِ ، في حضرةِ البحرِ ، أنثى
تنير دروبَ الحضارة

وفي كبدِ الصخرِ يكمن عقمُ الرجال
حكمةُ الماءِ تنبئني
كلٌّ أنثى منارة
مرحباً . . يا هلا بعروسِ الغلال

***

قلبي رضيعُ اللوزِ
في أشهى روابيك الخصيبةِ بالغيوم
وكوامنُ الخلجانِ تعصف بي . .
وتنثرني حُميّاها على شفقِ الغيوم
لا تقرئي «تبّت . . .» على روحِ الرمال
بل رددي : «سبحانَ من يحيي . . .»

***

والرمال انتظارٌ لإشراقةِ امرأةٍ
من سلافِ النخيل
أعانق في طيبِ آلائها
سدرةَ المستحيل
والرمالُ ابتهالٌ يتامى إلى اللهِ
أن يخسفَ الأرضَ بالمرحلة
لنختتمَ المهزلة .

- أبو ظبي ، أيلول ١٩٩٨ - أيار ١٩٩٩

VIII

بَرزخٌ لِلجُنون

الطبعة الأولى : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٥

كتبت هذه القصائد - ما عدا «فواز عيد» و«الحصان الخشبي»- بين ٢٠٠١ و ٢٠٠٣ ،

ولا يخضع ترتيبها للتسلسل الزمني .

كوكبُ البِشَارة

من أين هلَّت غيمةُ الذكرى
ولم تُشفِقْ على أوجاعِنا
ريحُ الشَّجَن؟
هل كانتِ العبراتُ فاتحةَ العِناق؟
أم صاغتِ الأشواقُ ،
تحت قناعِها الجمريِّ ،
بادرةَ الرحيل؟
كيف التقينا عند جسرِ الموتِ؟
لا ندري . . .
أَنعبرُ مثلما عبَرَ الأحبَّةُ؟
أم نعودُ إلى ظلالِ الزَّيزفون؟

بحرٌ من الغيمِ المسافرْ
ما زال يفصلُ بيننا
جبلٌ من الأغلالِ والكتبِ العتيقة
قلبي على وجعِ الغروبِ
تجرُّه عكَّازتان

وأراكِ نافرةً على السفحِ المقابلِ
وعلةً مغسولةً بالشمسِ
في أبهى رؤاها

لا ، لستُ قنّاصًا
يلذُّ له ارتشافُ دمِ الطريدة
أنا عاشقُ الكلماتِ والصَّبواتِ ،
مجنونُ الغواياتِ القصيَّةِ
أسكبُ غربتي فيها
سحاباً مثقلا بالوجدِ ،
أستبقيه في قلبي
وأنسج من شفيفِ ظلالِهِ
شعري طيوفاً من ضياء

أَ نسيتِ كيف توهَّجَ النيروزُ
يدعونا إلى أعراسِ بابل؟
شهقت بساتينُ الهوى
وتناثرَ العشّاقُ تحت معاطفِ الدفلى
وغرَّدتِ الجداول :
يكفي أسىً . . .
شيلي مناديلَ الحِدادِ
وعانقي شمسَ الصبابة

نوّارٌ أقبلَ زاهياً
فلنحترقْ في مائه الورديِّ
أسئلةً
لنخرجَ من رمادِ مواتِنا
نهرًا جديدا .

من علَّمَ النّارنجَ أن يلهو على صدري
ويمعنَ في الهديل؟
والبحرُ يُطلِقُ في الضلوعِ طيورَه جذلى
وتختلطُ العرائسُ بالخزامى والنخيل
الكوكبُ الموعودُ لم يُشعِلْ شموعَ الوجدِ
إلاَّ في جوانحِنا
لتكتملَ البشارة
والحبُّ يقضي أن نكونَ معاً
لنبني أيكةَ الفرحِ الأصيل
ونعيدَ للأشياءِ غبطتَها الحميمة
ونحرِّرَ الجسدَ المباركَ
من طحالبِ شهريار
كونٌ نعمِّره بأيدينا
كما نهوى
وليس له بديل .

رَبِيعُ اليَمَامَة

تمدُّ اليمامةُ عبرَ الفيافي جوانحَها
سحباً من بخور
وتسكب ليلاً خفايا هواجسها
مطراً من حريرِ السكينة
لتحمي أحبَّتَها الغائبين
يدٌ لاحتضان الفراخ
تباركُ في العشِّ دفءَ الأمومة
يدٌ لتدثِّرَ قلبي بآلائها
تسيلُ حناناً على عريهِ
تهدهدُ حُمَّى تباريحِه المزمنة
وتطلقُه قمراً زاهياً
في سهوبِ الغياب

ريشُها مفعَمٌ بالنَّدى
في هجيرِ البيادرِ
أو في خريفِ الكروم
صوتُها

مقبلٌ من وراءِ الغمام
مطراً وسلام
وتستقبلُ الطيرُ وردَ المُحيًّا
بأندى لحونِ الصباح

تستضيفُ البيوتُ الدفيئةُ
في موسمِ الثلجِ
سربَ اليمام
يطيبُ انهمارُ الحكاياتِ
بين كرومِ السَّمَر
ويفوحُ الهديل
تفيضُ القلوب بأسرارها
في مواعيدِ عشقٍ جديد
ويرسم نيسانُ أفراحَه
حلماً . . حلماً ، لوحةً . . لوحةً . .
في كتابِ الربيع .

رحلةُ أرجوان

الله! . .

ما أشهى فنائي فيكِ!

مركبُنا ينازعُ في حميمِ الموجِ ،

يوشكُ أن يغوصَ إلى القرارةِ

فلنباركْ نعشَه المائيَّ

ولنُشعِلْ لدى محرابِه السريِّ

مجمرةَ البخور .

سنواصلُ الإبحارَ ما دمنا معاً ،

لن نستجيبَ لوسوساتِ العاصفة

صدري وصدرُكِ مركبٌ أشهى

وأغلى

والحبُّ إكسيرُ الحياة

هذي السحابةُ عابرة . . .

وحشيَّةُ الأنواءِ ثلجٌ موسميٌّ

يغري بركبِ الشمسِ

أن يزدادَ وهجا

وتفيضَ أوديةُ الحنين

شهداً وريحانا
والغيمُ لا يقوى على لغةِ العذوبة
في قلوبِ العاشقين .

هي رحلةٌ من أرجوانِ الوجدِ
في بحرِ الجسد
جسدٌ جسدْ
مددٌ مددْ
العاشقان استغرقا في العاصفِ الناريِّ
والتحما به حتى تناهى غِبطةً نشوى ،
سلاماً سندسياً وابترد
والراصدُ المنقوعُ في تابوتِه الثلجيِّ
يرنو بانكسارٍ عبرَ وحشته السحيقة
شبحٌ . .
سديمٌ . .
لا أحدْ
لو يستطيع الخوضَ في الأعماقِ
لم يقنع برائحةِ الزبد!

بَوْحُ الوِسَادة

لعلَّ من كرامةِ العاشق
أن يتلاشى
كالبخورِ، جهرةً أو خفيةً،
في حضرةِ المعشوق

وجدي مدًى ينتظرُ البُراق
وأنتِ بين لهفةِ الوِسادة
ونفحاتِ الجمرِ في الخلايا
رؤيا ملاكٍ سابحٍ في الملكوت

طالَ السُّرَى واختلَّ ميزانُ الفلَك
ضاقَت دروبُ الليلِ بالحنين
من أيِّ ركنٍ يبدأُ الأسيرُ
بالنَّجوَى أوِ الشَّجَن؟
وكيف يحظى قلبُه العاني
بميقاتِ العروج؟

حضورُكِ الشّعريُّ ، يا يمامةَ الغُربة
يفيضُ أنداءً وذكريات
كيفَ تركتِ العشَّ للرياح؟
وأيُّ نجمٍ زُحَليٍّ لاحَ في الميناء؟
هل خطَّتِ الكثبانُ هذي السِّدرةَ الهشيم
في لوحكِ الموعود؟
أم أنتِ أشفقتِ على شاعرِكِ المجنون
أن ينتهي . . في خاطرِ الرمال
كما انتهى وضَّاحُ في غَيابةِ الصندوق؟

طيري مع البروقِ في انخطافِها
كوني سديماً خارجَ الأفلاك
وأطلقيني في المدى بلا رجوع
لعلّنا نبدأ كوناً شاعرياً أجمل ،
لا تأمني للصدفةِ البلهاء
ولا لغدرِ الملكِ الموتور
خلّي فتاكِ ساكنًا تحت الشغاف
خلّيهِ في غلائلِ الحلمِ
وفي هواجسِ الأرَق
أليس طقساً رائعاً أن تبحري معه
كما التحامِ الشمع واللهب؟
يكفيكِ وهجاً أن تُجَنِّي حسرةً عليه

أو أن تذوبي شغفاً بين يديهِ
يا أنتِ ، يا أشهى قطوفِ الشهدِ
يا أقسى جراحِ العشقِ
يكفيكِ ، يا أمَّ البنين!

إشارة خضراء

يا طيوفَ الصِّبا ، يا غيومَ الطفولة
كيف ننسى أياديكِ في ضحوةِ السّابعة؟
ونحن اليتامى ، طيورَ العزاء ،
نحتمي بالمثاني
وسورةِ ياسينَ
والفتحِ . . والمائدة
ولا شيءَ يخفي مباهجنا الساطعة
ولا خوفَ من شبحٍ أو غراب
طائرُ الموتِ ينزلُ في دارِ جيراننا
كضيفٍ أليف
يغتلي في بيوتِ الثكالى عويلُ النساء
نضمُّ مصاحفَنا في الصدورِ النحيلة
نستعيذُ بربِّ الفلَق
نحيطُ المسجَّى بآياتِ رحمته الواسعة
ونمضي بأصواتنا الخاشعة
لنصطحبَ الضّيفَ في رحلةٍ من ضياء

***

فيا طفلةَ البرقِ في غابةِ الأسئلة
ليس خوفاً من الخاطفِ الأبديِّ
ولا هرباً من أذاه
ألفناه حتى غدا لعبةَ المرحلة
ولكن لتبقى الإشارةُ خضراءَ
في صحوةِ الذاكرة
إن موتي بنى عشَّه في سريرِ الغياب
وأنا أعرفُ الموتَ
معرفتي بخفايا سُهادي وحزني
فلا تحرميني سكينةَ عينيكِ
يا لغةَ الشهدِ في أصفهان
باركي غرقي
في مداراتِ خضرتها الحانية
ولا ترحلي قمراً خلف قوسِ السحاب
ليبقى فتاكِ على قهرِهِ
قصباً راعشاً في العراء
ولا تسألي النهرَ عن سرِّ أوجاعه
في عصورِ الجليد
ولا كيف أذوي بصحبةِ موتي
وأنتِ هنالكَ أُحجيَّة سادرة
وراء اختلاطِ الرؤى والظنون
وليس لقلبي حِمًى أو ملاذ

سوى أيكةِ الياسمين
فلا تأمني في تناثيكِ مكرَ الغراب
ولا تتركيني له سمكاً ذاهلاً
في قرارِ الشباك .

كونٌ جديد

كنتُ هنا . .
ولم أكنْ . . من قبلُ
يا عشتارُ
يكفي جدلاً وأسئلة
كنتُ هنا . . ولم أكنْ
مثلَكِ ، يا بهيَّةَ الأسرار
هذا أنا تمُّوزُكِ الصريعُ في الأدغال
أنتظرُ الريحَ التي تفيضُ بالبشارة
لنلتقي في جيرةِ الفرات
ونطلقَ الحمائمَ البيضاءَ
لعلَّها تُعدُّ للعشاقِ
أعراسَ الربيع

أَهذه تجربتي الأولى؟
أمْ هيَ في دائرةِ العاشرةِ ، السبعين؟
لعلَّها الألفُ ، البلا حصرٍ . .
أوِ الأخيرة .

أَ طفلتي أنتِ هنا
أم أيكةُ الغربةِ والسلوى
أم الحبيبة؟
فردوسيَ المفقودُ
أم جحيميَ الموعودُ
أم منفايَ في غيابةِ البرزخ؟
أم أنتِ ريحُ النفخةِ الهيولى
قبل اختلاجِ النارِ
والضياءِ
والمطر
في جسَدِ التراب؟

آدمُ مسكونٌ بآياتكِ
يستجلي معانيكِ
ويستعرضُ أسماءَكِ
في كونٍ من الغبطةِ والإشراقِ
لا تفّاحَ . .
لا أفعى . .
ولا شيطان!

العاشقُ اختار الطريق
مصباحُه طيفُكِ في أصفى تجلّيهِ

وعهده القديم أن يمضي
بكلِّ ما يكنزُ من أحلام
يخوض غيبَ التجربة
وأنتِ أحلى صحبةٍ
وخيرُ صاحبة
نسعى معاً نصارعُ الأنواء
حتى تجيء غضّةً مواتية
نستنبتُ البراعمَ الأولى
في سدرةِ الحضارة

أ كنتِ لي لبنى أم الثُّريا؟
حواءُ . . أم عشتارُ . .
أمْ خولة؟
أياً من الأسماءِ والصفاتِ تلبسين
فأنتِ ، أنتِ ربةَ الحكمةِ والبهاء
أندلسي ، حريتي ، جنوني
ملاذيَ الأولُ
والأخير
وكلُّ ما أزهرَ في جوانح الدنيا
وطاب
من نفخةِ الصلصالِ
حتى رجّةِ النشور .

قمرٌ خارجَ الفصول

لا تَسرِقي زمني . . .
ربيعُكِ لا يخونُ اللَّوزَ
أو يسهو عن النَّيْروزِ
إنْ هلَّت على الميعادِ فاكهةُ الخريف
تشرينُ يعرفُ طعمَ أغنيتي
ويدركُ لوعةَ الأيتامِ في خوفي
ولونَ الرَّاحِ في الإبريق

لو باحَ ماءُ الوردِ بالأسرارِ
واشتعلَ المُحيَّا . .
لاهجاً بكوامنِ الوجدانِ ،
يقطفُ من رعافِ القلبِ نضرتَهُ ،
وتموجُ في السفحِ الوضيءِ
حدائقُ الرمَّانِ ريَّا . . .
لو فاضَ بالورديِّ ما تخفينَ ،
في نفحاتِ أنفاسِ الخُزَامَى . .
لانتشى غيمُ الخريف .

تزهو ظلالُكِ في دمي
وتلفُّ روحي بالسكينةِ والأمان
مسرى ملاكٍ في حدائقَ بابليَّة؟
أم صدرُ أمٍّ حافلٌ بالشهدِ والنُّعمَى
واللهفةُ الزهراءُ تحتضنُ الرضيع؟
هل ضاع قلبي . .
قبل أن تَفِدي إلى صحرائِهم
يا واحةَ الشامِ الحبيبةَ . .؟
أم أضاع مدارَه فأوى
إلى بستانكِ الغالي
كعصفورٍ شريد؟
يا طفلةَ السَّروِ الموشَّحِ بالغمام
أنَّى تركتِ الجمرَ يندبُ سوءَ طالعِهِ
وسفحتِ وهجكِ تحت غاشيةِ الرماد؟
أتنامُ بنتُ البرقِ في دغَلِ القصبِ؟
قولي متى يشتدُّ عودُ الخيزران؟
ويداعبُ التيَّارُ أعشابَ الضفاف؟
حتى تسيل النارُ في خَدرِ الجذوع؟
أيظلُّ زهرُ الزيزفون بلا ثمار؟
عشتارُ تنهضُ من ركامِ سباتِها
لتعانقَ الروحَ الفراتيَّ المُضرَّجَ بالعقيقِ
ولا تبالي . . .

أهناك من يرضى بألاَّ يلتقي
عشّاقُ بابلَ خارج الأسوارِ
والأفراحُ تمّوزيّةُ الألوان؟
ماذا يقولُ العندليبُ
لنجمةِ الصبحِ البهيّةِ
حين توقظُه لينفضَ ريشَه
من أسرِ قلبي؟
ماذا تقولُ يمامةُ البشرى
لخاطفِها؟
أَ يغفرُ إنْ تمادى
بارتشافِ حضورِها
إيوانُ حبّي؟
لو تأخذين وسادةً
قلبي
لأزهرتِ الليالي ،
غرّدتْ حُورُ الينابيع الشهيّةِ
وانطوت حِقَبُ الجلَيد
تحلو سماؤكِ في مرايا غربتي
وتعيدُ أحلامَ الصّبا
أبهى وأغلى
لكنّ زوبعةَ الرمالِ
تسطو على فجري وتلتهمُ الشّفَق

فإلى متى تبقى سمائي
خيمةً من زئبقٍ صدِئٍ
ونجومُ قافلتي غبار؟

لا تخطفي روحي
إلى وهجِ الغوايةِ في عناقِ الجلّنار
ما بيننا أشياء . . لا تُحكَى
أمامَ عصائبِ الطيرِ الغريبة
أشياء يعرفها كمونُ النارِ في الصوّان
ويبثها ألقُ النّدى المنثورِ في شَجَنِ الهديل
وعلى شفاهِ الأقحوان
أَ يتاح لي أن أحتمي
بين استداراتِ الروابي
والملاءاتِ الشُّفوفِ
وتحت شلاّلِ العبير
من أعينِ الليلِ الغيور؟

من أيِّ أندلسٍ
أراقت كستناءُ الروحِ
في العينينِ خمرتها؟
وبأيِّ لونٍ ترسمينَ
على وشاحِ الليلِ

ألحانَ الغَجَر؟
هل تذكرُ الحِنَّاءُ
وهجَ القبلةِ الأولى
على ظمأِ الحرير؟

قمرٌ يحارُ الوقتُ
كيف يَعدُّه بين الفصول
قمرٌ يجازي عاشقيهِ بالغيابْ
ويَضِنُّ أن تحنو عليهِ
سدرةُ القربى
وإنْ أزرى بآلاءِ الأصول
قمرٌ . . له عرشٌ من الفيروزِ
في صدري
وتاجٌ من رحيقِ الياسمين
ويحفُّه بحرٌ من الرغباتِ
تزهر في مرافئه وعودُ الأرجوان
بحرٌ يصونُ كنوزَه فينا
وينتظرُ المَدَد
من لا يباركُ ثورةَ التفاحِ
آنَ تَهِيجُ بالطَّلع القلوب؟
ويودُّ لو تُلقَى كَرومُ التوتِ
في كوخِ الحطب؟!

لا تنكري شغفي
لئلاَّ ينتهي وجعُ القصيدةِ
غيمةً زيتيةً في معجمِ الصحراء
من علَّم الصَّفصافَ أن يحنو على شجني
وأنتِ بخيلة أم سادرة؟
ماذا لو امتزجت
نُسيماتُ الأصيل
بطيبِ أنفاسِ الضُّحى؟
أيصدُّني نيسانُ عن شهدِ النعيمِ
مقطَّراً من خمرة الشفتينِ
إن زوَّدتِ أشواقي
بآياتٍ من الكرزِ المخبَّأ في الجرار؟

منتدى البحر

حبّةُ الرّملِ قالتْ لجارتِها
طفلةِ الماءِ في ليلةٍ دامية :
«دثّريني بآلاء رِقّتِكِ المُنْعِشَة
مُبارَكةٌ أنتِ ، يا درّةَ الغيمِ
أُمثولةٌ نادرة . . .»
ضحكَ البحرُ ،
لم يُخفِ إعجابَهُ الذّكَريّ ،
تملّى محاسنَها
واستكان :
«عندنا جارةٌ ساحرة
سكن الشعرُ في لبِّها المرمري
ولم نتمتّعْ بوهجِ العبارةِ من قبلُ؟
يا مرحبا بأميرةِ عبقرَ . . .
طوبى لأبهى خدورِ الظباء!»

مالت الشمسُ عن برجِها الفارسيّ
وأطلّت على دارةِ السرطان

كان غيلانُ يرسم آلاءَ ميَّةَ
في جسدِ الرَّملِ
حرفاً فحرفاً
وفاصلةً فاصلة
يقطِّرُ أنفاسَها في شميمِ العَرارِ
ويبحرُ في سانحاتِ اليمامة
وغيلانُ آخرُ يغفو بلا نأمةٍ
في حنايا دمشق
وسيفُ العدالةِ يغفو معه
لينعمَ غلمانُ هندٍ بما يشتهون

طفلةٌ نَسِيتْ حلمَها في مرايا عدَن
والرياحُ تدورُ مضرَّجةً بالأنين
كلُّ حزبٍ حريصٌ على قصبِ السبْقِ
في غمرةِ الأرجوان

.. يا لسماحِ الأخوةِ الأعداء
ما أطيبَ الحوار!
.. يا شهوةَ التدميرِ والتَّشظِّي
كم أبدعت يداكِ من صحارى
بوركتِ يا جزيرةَ العرب!

لم يكنْ في طقوسِ الزَّبَد
ولا في كتابِ الفصول
سوى سيرةِ الرملِ تهذي بها الريحُ
عبرَ ليالي دُبَيّ
وهونغ كونغ حاناتِها الساهرة .

لم تَرِدْ حكمةُ الماءِ في سامرٍ أو رقيم
وحدها حبةُ الرملِ كانت
تبوحُ بجمرِ ابتهالاتِها
لسماءٍ مباركةٍ بالمطر .

شَهْرَزَاد

في البدءِ كانت شهرزادُ
ولم يكنْ
في هاجسِ المرآةِ
لِصٌّ
أو خفيرٌ
أو مَلِكٌ

من أين فاجأ ليلنا . .
واندسَّ في أحلامِنا
سحرُ الحكاية؟

مِلكٌ خَصِيٌّ
أو شبيهٌ . .
يؤنسُ الشّطرنجُ ليلتَه
يبادرُ بالهجومِ لكي يرى
رتلَ البيادقِ حوله صرعى
ويُسعدُه هلاكُ الحاشية

لولا خناجرُ كامناتٌ
تحت أجنحةِ الرياح

وعلى سريرِ الجَمْرِ
في وهجِ الضحى
معشوقةٌ . . في حضنِ عاشق
نارٌ تُذيبُ البنَّ باللَّبَنِ المباركِ بالعسل
نجمانِ يلتحمانِ في واحد
وأسرَّةُ الغرماءِ تغلي بالسُّعار
أحقادُ موتورٍ . .
وجلاَّدٌ . .
وسيفٌ سابحٌ في الدَّم

في البدءِ كانت شهرزادُ
بلا قناعٍ أو رسالة
طيفٌ يباركُ أبجديَّةَ روحِه
ويغوصُ في لغةِ الجسد

الليلُ مملكةُ الحكايةِ والرحيق
والليل يخفي شهوةَ الجاني
ولونَ الدم
وصبيَّةٌ كالأمِّ تحلمُ

بالربيع
وبالخريف
يتآخيان
وتودُّ للأطيارِ أن تبني مدائنَها البهيّةَ
بالمحبةِ والأمان
حتى وحوشُ الغابِ تخجلُ من مخالبِها
متى هلّت عليها شهرزاد
أتراكِ أخطأتِ الوسيلةَ
وانحرفتِ عنِ الطريق
بين الغريزةِ في كهوفِ ظلامِها . .
ولبابِ شمسِ المعرفة؟
أَ تُدجّنين الوحشَ في الإنسانِ
حتى يستوي طفلا كبيرا؟
يكفي . .
شبعنا من حكاياتٍ
تُعِدُّ السيفَ فاصلةَ الختام .

أطوار

- ١ -

لا تطلقي بشائرَ النيروزِ
للرياح
دعي تماسيحَ الدمِ المطلولِ
في سباتها
وأبحري سراً مع النارنجِ والخزامى
لعلَّ جيلاً قادماً
يسكنُ محرابَ اليمام
في أيكةِ الحنينِ
بين أضلعي

يا موجةَ الدفءِ التي . .
لو آنستْها حِقبُ الجليد
لفاضتِ السهوبُ بالغدرانِ والواحات
لا تبحري وحيدةً عزلاء
ولا تغوصي في سباخِ وجعي

يا امرأةً تكتبُ في لوحِ الهوى
أندلسي ومصرعي
يُسعدني
رغمَ تباريحِ النوى
أن تَصِلي وهجَ الذرى معي

- ٢ -
رجلٌ وامرأة . . .
جوعُ حوتٍ يرومُ التهامَ القمر
غابةٌ من أريجِ الصبابة
تشتهي الاِحتراق
وعاصفةٌ أنجزت وعدَها
سحَّتِ الغيثَ واختمرت بالشرر
وسلطانُ مملكةِ النارِ
يشبكُ قلبيهما ويشدُّ الوثاق
فيلتحمُ الثغرُ بالثغرِ
والنهدُ بالنحرِ
واليدُ بالظهرِ
تلتفُّ ساقٌ بساق
تهيجُ الصباباتُ
والموجُ يغلي ويسكنُ
في سدرةِ الملكوت

وينسربُ النهرُ منتشياً
في حقولِ البنفسج
تدوخُ الكواكبُ ذاهلةً عن مداراتِها
وتروغُ الظلال
يغادرُ سلطاننا العبقريُّ
عرينَ الغوايةِ
متشحاً بالدخان
ويسكنُ موجُ العناق
يا لها من سكينة!

- ٣ -

رجلٌ فائرٌ دمُه بالحِمَم
يخبِّئ في ليلِه ألفَ ذئبٍ جريح
وسيدةٌ من حريرِ الغمام
تحسُّ بأطيافِ حرَّاسِها
رَصَداً
في نسيجِ الهواء
فكيف إذا ما اختلى عريُها
بحمَّى فتى عاشقٍ
وما في خدورِ الجميلاتِ
إلا جنونُ الحريق؟!

ـ ٤ ـ

نيزكٌ رامحٌ في الفضاء
جوادٌ تمادت به نوبةُ النَّزَوَان
يترصَّد أنثاهُ
ثانيةً . . ثانية
هلَّ وعدٌ . . وطاب لقاءٌ
ثمَّ . .
زُلزِلت الأرضُ زلزالَها
يومَ رفَّ على خدرِها
طائفٌ من خيالٍ مريب
فأطبقَ خوفٌ وفاضَ سراب

نجمةٌ آثرت أن تخونَ صباها
فانتهت بيدراً من رماد!

النَّواعِير

ـ ١ ـ

رجلٌ وامرأة
مهرةٌ وجواد
ورياحٌ تثيرُ اللظى
في عروقِ الحَجَر
أباريقُ داخت على الرائحة
وأمداءُ حُرِّيةٍ ما لها من ضفاف
مدار جنونٍ عريقٍ عريق
يحوِّلُ قيساً إلى دون جوان
ويعجن هيلين في جرنِ ليلى
تَباركَ ناموسُه من جنون
تضنُّ به سِدرةُ العاشقين
فلا يتخطَّى ربيعَ الشغاف .

ـ ٢ ـ

تبدأ الأمواجُ في منعطفِ الليلِ
طقوسَ الجمرِ ،

أشواقٌ ، بروقٌ . . واحتراقاتٌ
نواعيرُ تغاوي شبقَ الماءِ
فتهفو . . وتجافي . . وتدور
أنتِ بحري . .
وأنا النهرُ الذي يعشق أن ينداحَ
في أقصى غواياتِ البحور
جسدي ممتزجٌ باللجةِ الشهّاءِ
أمواجي وأمواجُكِ تغلي
وتفور
شَغَفٌ يربو وينهارُ وينساحُ . .
ولا يدري متى يرتاحُ . .
يعلو ثم يهوي
ويغالي
ويجور
والمسرّاتُ . .
اللّجاجاتُ . .
الغواياتُ . . تدور
شهقةٌ أو رجةٌ صاعقةٌ
تعلن ميقاتَ النشور
***
الصباباتُ رحًى تغرف شهداً
وتدور

غبطةٌ لا تملك الأرواحُ
أن ترقى إليها
بين أنهارٍ . . وحور
فاغترفْ من طيباتِ الوجدِ
ما فاضت به الأشواقُ
من آلاءِ ربّاتِ الخدور
قبل أن تغفو طويلا
ويغطّيك لحافٌ أبديٌّ
من صخور

***

ليلةٌ واحدةٌ
بين كرومِ اللوزِ والرُّمّانِ
تغني وتفيض . .
عن حياةٍ في سباخِ البادية .
كلما جُنّتْ نواعيرُ الهوى
وانبهر الغوّاصُ من وهجِ التَّشَهّي
وتلوّى نازفَ الأنفاسِ
في حمىً عُبابِ الأرجوان
كانت الساعةُ أغلى
من ثلاثين سنة .

خَريفُ الوَجْد

حين تضيق الأرضُ بالأغلالِ
والسجون
يشرق في ذاكرةِ الرمال
كافُ ونون
بلقيسُ فوق عرشِها المنخور
ترقِّع الأسوارَ بالبخور
والهدهدُ المهووسُ بالنساء
في مهرجانِ العريِ تحت الماء
يلوذُ بالشراب
يحتارُ هل يكونُ شاهداً
أو لا يكون
ويخلطُ الهوامشَ الربداءَ
بالمتون

تسألني الأنسامُ بارتياب :
كيف دخلتَ في خريفِ الوجدِ
واستغرقتَ في العُباب؟

وعندما تورَّدَ الجنى وطاب
كيف نسيت الدربَ والمفتاحَ والسراج؟
وفي مدار زُحَلٍ . .
أو تحت قوسِ السرطان . .
يا مبحراً في أبدِ الحلمِ
بلا بوصلةٍ ولا نجمٍ ولاَ شراع
ما ذا تبقّى لك غيرُ الجنِّ
في مدائنِ العجاج؟
أ تبتغي وسادةً من زبدٍ
أم من سراب؟
أم تنتهي حكايةً في غشيةِ الكثبان
ما دمتَ لا تفقه في علمِ الكتاب؟

أقفاصٌ للنّار

لا تَحبِسي
عن مهرجانِ الشمسِ
أفراخَ الحمام
أَوَ تهتكين بنزوةٍ حَجَريَّةٍ
حُريَّةَ الزغَبِ الحرير؟
من يقتلُ الأشواقَ في أبهى توهجها
لكي ترضى زبانيةُ الظلامِ
الآكلون لحومَ إخوتهم بلا حرَجٍ
وراء سترِ المعصية؟!

الطفلُ مسكونُ الهوى
بأمومةِ الرُّمّانِ
لا يقوى على مضَضِ الفِطام

للنّارِ أقفاصُ الحريرِ
وهلوساتُ الأوصياء
هلاَّ خلعتِ قشورَهم عنّا

وأعلنتِ النَّفير
وليلتحمْ جسدُ الغضا الجمريُّ
بالجسدِ الفراتيِّ النضير
طقسٌ تباركه شياطينُ القصيدة
شهبٌ ، سنابلُ من غواياتِ القمر
توتُ الشّآمِ يغارُ من لوزِ الفرات
وربيعُ بابلَ يشتهي
أعراسَ أندلسٍ وموسيقى غجَر
لا تحرمي نهرَ الصبا
من رحلةٍ مشبوبةٍ بالأرجوان
بين ابتهالاتِ البنفسجِ والقباب .

وَيَمرُّ السَّحَاب

كيف أرسمُ في زئبقِ الوقتِ
غيمةَ حزنٍ
و زنبقةً من حنين
وقلبي فراشةُ وجدٍ مهشَّمةُ الأجنحة؟
كيف أنثرُ خوفي
على ورقِ الليلِ؟
والنهرُ يهذي كعادته . . .
وجِنِّيَّةُ الحلمِ تسرقُ أَسرارَهُ
و يمرُّ السحاب
ليلةٌ كألوفِ الليالي
شمعةٌ كاحتراقِ دمي سائلة
عالمٌ دمويٌّ مقيت
مريبُ السؤالِ
غربة/غابة من سَموم
تنسفُ الروحَ عبر سهوبِ المنافي
كلما حرَّكت شجرَ القلبِ
ريحُ الشمالِ
و يمرُّ السحاب

تخطر الشمسُ في دارةِ السرطان
تشعلُ الأرضُ أفراحَها لعريسِ الفصول
يكسرُ النهرُ أغلالَهُ حالماً
بعناقِ البحار
يودعُ العشبَ أندى حكاياتهِ
ويجوبُ الحقول
مثقلاً بهمومِ الورى
وسعارِ الذئاب
وتمرُّ الجميلاتُ في البالِ
مرَّ السحاب

يغرس الدالية
يتملّى حبالَ الكروم
ويتركُ شهدَ العناقيدِ
مشتعلا في بطون الخوابي
عاشقٌ غفلت عن رؤاه النجوم
ولم يغتنمْ جيرةَ البادية
ويمرُّ السحاب

تطلق الشمسُ ميعادَها للفراشاتِ
تنثر أسرارَها في عروقِ الروابي
تعانق برجَ الحمل

وتنتظر الأرضُ جودَ السحاب

ربيعٌ يجوبُ فلسطينَ
مغتسلا بالدماء
شجرٌ هاشميّ

ينغل الدودُ في لبِّه
ترفٌ برمكيّ
وحرصٌ يغالي به تاجرٌ أمويّ
يكنز القرشَ فوق أخيه
ويخضبُ لحيتَه بدم الشهداء
وآخرُ يهتفُ :
«ما كو أوامر»!
فيختنق الأفقُ باللاجئين
ويمر السحاب . . .

أعراسُ جِنينْ

ـ ١ ـ

خفِّفي إيقاعَكِ الجارحَ
يا طيرَ الأنين
وتهادَيْ بين رفَّاتِ المناديلِ ،
ارفعي ألويةَ الفجرِ المدمَّى
زغرداتٍ وشموعاً
في دروبِ الغاشية
أنتِ في حضرةِ نيسانِ جِنين
باركي أعراسَنا الزهراءَ
في أبهى غيومِ الياسمين
واغفري للشعرِ بؤسَ القافية .

ـ ٢ ـ

لونُكِ المخطوفُ ، يا أمَّ الشهيد
حرِّريه بابتهالاتِ الخُزامَى والقَرنفل
قلبُكِ المزروعُ في أنقاضِ بيتِ العائلة
لم يزل مشتعلاً بالأسئلة :

«أين فرسانُ قريش؟
أين أنصارُ محمَّد؟
والحواريُّون من حول المسيح؟
أين عشّاقُ فلسطينَ ، جذور السنديان؟
أين روحُ العزِّ والنخوةِ في أبناءِ قومي؟»
لا تبالي . . كلُّهم موتى هناك
وحدهم أبناؤكِ الأحرارُ يختارونَ
دربَ الشهداء
وحدهم جِسرُ الفداء
فدعي أُمَّتكِ الثكلى تغنّي جرحَها
تحت أغلالِ الجليد
واتركي أسيادَها غُفْلاً سكارى
يتباهون بأثوابِ العبيد
أمّةٌ تبرأُ منهم أجمعين
ويتاماها جبالٌ من حديد
لم تلِن يوماً لطاغوتٍ . . .
ولكنْ
سلبوها نعمةَ الرَّفضِ
وإحساسَ الكرامة
الطواغيتُ كدودِ الخلِّ
همْ أصلُ البلاء .

- ٣ -

«هنا . . كانَ . . في هذه المقبرة . . .»
قال طفلُ الأسى ،
شاهدُ المجزرة
«هنا بيتنا كانَ
لكنّهم نسفوه
وكان أبي يقرأ الفيلَ والزّلزلَة
وأمّي تصلّي وراءَه
ألم ترَوا الشّمسَ مكسوفةً
لئلاً تجيبَ على الأسئلة؟!»

. . .

غُمّةٌ ، غَمرةٌ ، غَشيةٌ . . وتزول
محنةٌ تتمادى كباقي المِحَن
غيمةٌ سائبة
فرشت سمَّها في العروق
فاتركوا للخفافيشِ أشهى ملذّاتِها
في نعيمِ الدُّجى
واتركوا للطبول
حربَها الخائبة .

- ٤ -

في بَلاطِ قُرَيشٍ وأتباعِها

هلِّلوا لجيوشِ الموالي . .
وإن كان قادتُها من فلولِ التتار
«وسوى الرومِ خلفنا
ألفُ روم . . .»
هلِّلوا ، ياَ عصافيرَ مكَّة
عسى أن تباركَنا لغةُ الأرجوان
أليس لهذا السُّعارِ الخُرافيِّ
من خاتمة؟
أليس لهذا الرَّدى العبثيّ
صحوةٌ أو قيامة؟
المواسمُ حافلةٌ بالغِلال
والمرايا مصدَّعَة غائمة

مَنْ يلوِّنُ ليلَ الطَّواغيتِ
غيرُ نافورةٍ من دماء؟
ومن ينسجُ الأغنية
سوى الريح عاصفةً بالجذوع الرميم؟
يغرِزُ الذئبُ أنيابَهُ
في جوانح طفلٍ رضيع
ودوَّامةُ الثَّلجِ محمومةٌ مثقلَة
بوعودِ الربيع .

- ٥ -

مدرَّعةٌ ، قلعةٌ زاحفة
وأسطورةٌ
من نجيع فتيٍّ
وذاكرةٍ عاصفة
حجرٌ نيزكٌ في يدٍ
لا تخاف

أمّةٌ تستردُّ صباها
وتدخلُ فصلَ القطاف .

مُصَادفَة

جثة في شارع البحرِ . . .
أكانت غُربةُ الملحِ هي العِلَّةَ
أم حُمَّى رياحِ الهندِ
أم شمسُ المدار؟

لم يزل خاتمُه الفضيُّ مشدوداً على إصبعِه
يوشك أن يخنقَها :
«كان هذا شاهدَ الفتحِ الوحيد!»
تسمُ الغربةُ أطلالَ محيَّاهُ
بألوانٍ من القهرِ العميق
ضحكةٌ . . تكشيرةُ الأسنانِ
أو ما يشبه الضَّحكَ الخليع
جلده المدبوغ بالرمضاءِ
رِقٌّ جاهزٌ للنسخِ
لم ينقش سوى الموتِ عليه أحرفَه

ناسكٌ في جيرةِ الشاطئِ ،

تاهَ الوقتُ عن قنديله الخابي
ولم تُقبِلْ على مائدةِ اللّحمِ الطيور
يا لها من صدفةٍ منقوعةٍ بالسخرية!
جثةٌ عاريةٌ مثل الوليد
همس الأصحابُ إشفاقاً :
«ألا تعرفها؟»
ربما عاينتُ فيها شبَهي
لكنَّها . .
دونَ سترٍ أو قناع
وأنا ما عشتُ يوماً واحداً
دونَ قناع!

ضيوفُ الأرصفة

سيَّارةُ الأجرةِ لا تضيقُ بالهجير
وأنتَ . . لا مأوى ولا ظلال
يثرثرُ المذياعُ بالأُوردو
ولكنْ ، ليسَ لَكْ
يروي قطوفاً من حكايا العشقِ
في مواجع الحقولِ والجبال
والسائق المحروم من رائحة النساء
يحلم بالعروس عاماً بعد عام
يهيِّئ المنديلَ شاهداً
لا بدَّ من تعميدِهِ بالأرجوان
ويطفئُ الغلَّةَ من خيبتِهِ
بكلِّ ما أُتيحَ من تهافتِ الغلمان

يسقطُ ظلي جثةً على الرصيف
ألقي على أشلائه جريدةً
من فضلِ يومِ الجمعة

ملأى بما يعطِّرُ الأنفاسَ والقلوب
من بركاتِ السَّلفِ الصالح
أنشَكُّ بين سُربةِ الأرانبِ المستنفرَة
وأعبرُ الشارعَ وثْباً دونما التفات

فراشةُ الليلِ تلوبُ في جوارِ الشيراتون
وعاشقُ الصدفةِ ما زال بلا وعدٍ
ولا رصيد
سيارةُ البوليسِ في الزاويةِ الظليلة
ترصد من بعيد
وليس في أفقِ الرجاءِ
من سنا شراكةٍ محتملة
يا ذكرياتِ آسيا العجوز
يا مجدَ جنكيز وكوبلا خان
ويا رؤى طاغور
يا إقبال . . يا نهرو . . وشو إنْ لاي
يا خمرة النوّاسِ
والرشيد يرصد السحابة
يا صبواتِ آسيا المختمرة
من أين هلَّت هذه الغزالة
تبيعُ لحمَ الصينِ بالدرهم؟
وتوقدُ الشموع من أناملٍ صفراء

نحيي معاً ذكراكَ يا حامد بدرخان(*)
على ضريحِ آسيا الشهيدة!

(*) الإشارة هنا إلى ديوان الشاعر الكبير: «علي دروب آسيا» وما آلت إليه أحوال آسيا بعد رحيله.

الجراد

- ١ -

يقفزونَ
على كلأٍ من دمِ المتنبّي
جراداً
جراد
ينبشون فنونَ الكلام
كما تعبث الريحُ بالياسمين
ديوكٌ منفَّجَةُ الريشِ والحوصلة
تروزُ شهيّتها البكرَ،
تمتاحُ أقصى حدودِ الكفايةِ
عند التهامِ البراعمِ
في موسمِ النَّزَوان
وفلسفةُ الزيتِ تمسحهم
بالعمى والرياء!

- ٢ -

تضيقُ الخطابةُ بالكلمات

هشيمٌ على دِمَنٍ من هشيم
ولا من لهب
تضيقُ المساجدُ بالمومياء
هنا برزخُ الأم الهاربة
من شقاءِ العبيد
وذلٌّ انتزاع الرغيف
من حنايا جهنَّم .

ـ ٣ ـ
أهذا أوانُ القيامةِ
وعد الصِّراط؟
ودمدمةُ الغاشية؟
ولا رجعَ للصورِ
في جنبات السماء
ولا زلزلة
تبشِّر كوكبنا الحجريَّ
بماءِ المخاض؟!

مَشهَدٌ فلَكيّ

هَمدَ القطيعُ لدى هبوطِ الليلِ
واسترخى على ترفٍ حريرٍ
من أرائكَ فارسيَّة
يجترُّ ما آتته فِطنتُه :
أضغاثُ أبياتٍ مُخمَّسة ،
قطوفٌ من حكاياتِ ابنِ آوى ،
عشبةٌ صينيَّةٌ للباهِ ،
فيلٌ يرقصُ السامبا ،
على أنقاضِ مأربَ ،
قصصٌ يوشّيها توابلُ
من جزائرِ واقِ واق

ومع اقترابِ العاشرة
تَفِدُ الرَّوائحُ من صِحافِ المائدة
أشهى من الحورِ التي وُعِدوا بها
يَثِبون . . .
ينفرطُ القطيعُ إلى شظايا

لا يؤلِّفُ بينها إلا سُعارُ اللَّهْطِ ،
تندلقُ الكروشُ على الكراسي
والموائدُ عامرة
العِزُّ للرزِّ المتوَّجِ بالخراف

في الصدرِ يسترخي أميرٌ
من فتاتِ الأندلس
والقائدُ اليمنيُّ حطَّ إلى جوارِه
وفكاهةُ الدنيا وزيرٌ تونسيّ
لم يستطع نسيانَ مولاه الحبيب
والثائرُ الليبيُّ لا ينفكُّ عن غَليونِه
والجوُّ يَشرَقُ بالدُّخان
وهنا مذيعٌ من بَلاطِ معاوية
يختالُ كالطاووسِ . .
يبسط ريشَه الزاهي
على أطلالِ بُصرى ،
لكنه سرعان ما ينسى عباءته
مدلاَّةً على حبلِ الغسيل
ويعوج يروي دورَه الأمنيَّ
بين جنودِ ناصر

الشايُ بالنعناعِ خاتمةُ السَّمَر
وعصارةُ الثمراتِ في أبهى مواسمِها
أن يعتني راجا بألبومِ الصور .

فوّاز عيد

طالتِ الغيبةُ
واسترخى على مائدةِ النَّجوى
جدارٌ من جليد
آنَ أن تخرجَ من شرنقةِ الخوفِ
إلى ميعادِكَ الشعريِّ
يا فوّازُ عيد
لم تخن يوماً فلسطينَ
فهل خانتكَ حمّى ليلِها المنقوعِ
في بحبوحةِ العرسِ الجديد؟!

قبل أن تأوي إلى ضاحيةِ الريحانِ
في جيرةِ مهدِ الوالدة
كان في الشمسِ دوار
كان للدفلى نهاراتٌ
وأعناقُ الجيادِ النافرة
تغسلُ الأرضَ بنهرٍ من صهيل

ما الذي تخفيه هذي الكأسُ
يا فوّازُ
من ذكرى أميراتِ الندى
ما بين أبها . . . والقصيم؟
«عمّتي تبغَاكَ . .» أو تبغيكَ
لا تحفلْ!
يظلُّ الفتحُ والضمُّ
هنا . . في لغةِ الليلِ
وناموسِ الهوى النجديِّ
أشهى

لم تزل رائحةُ القهوةِ
في البالِ تغاوي وتدور
عبر وادي بردى
ترسم الأمطارُ في ذاكرةِ الصفصافِ
أطيافَ صديقين
هنا مرًّا . . وسالا في الزحام

عِمْ صباحاً ، يا صديقي
عِمْ مساءً أيها النايُ الشجيّ
ضاقتِ الدنيا بنا
ضاق الفضاء

آنَ أنْ تفسحَ لي شبرينِ . . .
كم يسعدني ، يا صاحِ
أن يغربَ نجمي في جوارِك
فاسترحْ في مهدِك الطينيِّ
لا تأسفْ على شيءٍ سوى الشعرِ
وخَلِّ الحورَ ينشدنَ لنا :
«جادكَ الغيثُ . . .»
على لحنِ الغجر
أنت في حضنِ فلسطينَ
لنرفعْ نخبَ هذا الفجرِ
واهجعْ بسلام .

جنازة اللغة

في سكينةِ ليلٍ دبقٍ
كدماء تخثَّرَتْ في مسلخٍ بلدي
ألوبُ على برزخٍ لانعتاقِ الرُّوح
أو مُسدَّسٍ بطلقةٍ جاهزة
أتنفَّسُ فيها أحرفاً جديدة

لغةُ الأَعرَابِ المهشَّمة
بين خليجِ الزيتِ
ودخانِ الصلواتِ في محرابِ نادٍ ليلي
ترعاه مشاةُ البحريةِ المباركة
من نجمةِ داهودَ الطافيةِ
على زبدِ المحيطِ الهندي
حتى الشعلة الخابية في تمثال الحرية

ما أبهى تراتيلَ الأدعيات
تتراقص تحت عباءاتٍ من لغة «كوين فِكتوريا»
درجوا على تهجينها في أفرانٍ ذرّية

بين ضواحي دلهي وغروبِ الباكستان
تاركين كشمير جرحا نازفا بين اللُّبِّ واللِّحاء

وإليكم أشلاء جثتي ، يا أصحاب
أتركها عاريةً لتستروها قبل أن تتفسَّخ
مثلما تفسَّخت أبجديةُ بني قحطان

أين تلك المرايا الوضيئة
لتحضنَ وجوهَنا من جديد
في إطارٍ واحد؟!
أكان الوقتُ مناسباً لإعلانِ موتي
في تابوتِ لغةٍ خاسرة
لم تَخُضْ أيَّ معركة
وما من أرضٍ مشتركة
أستنبتُ فيها أبجديةً بديلة
كلُّ خائب ينعى نجمتَه الآفلة
ويغنِّي على ليلاه .

المرايا إطاراتٌ صدئةٌ خاوية
والملامحُ أكوامٌ رملٍ سائبة
تعبثُ الرياحُ بتشكيلها
في باديةٍ من حُمَّى الضجر

برزخ للمجنون

«اللغة وعاء لاستيعاب ذاكرة الأمة وطاقتها الإبداعية وحضورها التاريخي في أحوال الإشراق والكسوف ، وهي روح عاشقها ومرآة عصره الكاشفة . . إلى أقصى حدود اللوعة والمرارة . . .»

ما الذي يحدث إنْ أَحرقتُ سورَ الأسئلة
وتركتُ البابَ مفتوحاً على قاعِ الجحيم؟
بيننا نهرٌ من البوحِ فلا تبني سدوداً
أو بحيراتِ ارتيابٍ وجفاء
واتركي للريحِ توجيهَ الشِّراع
حسبنا أن فجاجَ الأرضِ غرقى
وأراجيحَ السماء
بسعارٍ دمويّ

بغداد يا عراق يا بغداد أحبابي
يا جسر يا كرخ ويا سعدون يا أبو نواس(*)
يا ابن حُنَينٍ يا أبو حيّانَ يا كنديُّ يا رازيُّ يا ابنَ سينا
بغداد يا ثرى إمامك الأعظم
ويا جراحاتِ الرضا والكاظمية

(*) أبو نواس ، أبو حيان ، أبو الهدى . . إلخ ، اسم واحد مركب ولا أرى ضرورة للإعراب والحاق أوله بالأسماء الخمسة .

أوّاه ، يا بابل يا فرات يا دجلة يا أهوار ياعراق . . .
يا سُرَّ من رأى ومن وعَى ومن سمع
يا سوءَ ما كان وما يكون!
عراقُ يا . .عراقُ . . يا . .عر . .اق . . .

الموتُ والحياةُ في ربوعِنا
وَعدانِ محكومانِ بالمصادفة
السلطانُ الأحمرُ ما غادر قصرَ العظم
من يجرؤ على الدنوِّ من أسوارِ يلدز؟
ما دام الباب العالي والصدر الأعظم والعسس الإنكشاري
محروسين بآلافٍ من الجواري
وقطعانِ الغلمان
وفتاوى أبو الهدى الصيادي!

دمٌ وشقيق
يعيدان رؤيا دمشقَ
إلى دياجي أهوالِ روما
وأطيافِ ذاكرةِ الأندلس
غرابان في مسرحِ الموتِ يعتركان
ليجترحا قدوةً ، كومةً من تراب
ويدركَ قابيلُ كيف يواري أخاه
وغاشيةٌ تخلط النارَ بالطينِ والزيتِ

والريحَ بالماءِ والدمِ في جفنةٍ واحدة
ما الذي تركته لنا الغاشية؟
ما الذي فعلته بنا؟
أمَّةٌ أمَةٌ في حواشي جناح الحريم
أمَّةٌ نشأت وانطوت في لسان
مثقلٍ بالطنين
ونحن ، بنيها اليتامى ،
فتاتٌ من الرملِ والقشِّ والدوران
مع العاصفة
ولا من رجاءٍ لنا بالحياة
فهل من بقايا رجاءٍ لنا بالكرامة
ولو في أكنافِ القبور؟
سحقوا بذرةَ الحيوان
وانتهوا بانتزاع الجذور
فماذا تبقّى
سوى برزخٍ للجنون؟
والجنون فنون
لا تقلْ أيَّ فنٍّ تريد
يا ابن الفراتين اتّعِظْ ولا تجادلْ
(كلُّه عند العرَبْ صابونْ)
فانتبهْ للغسيل
واعتصم بالجنون!

بادئاً من حطامِ اللغة
كلُّ كسرٍ تشظَّى دماً وهوان
كل حرفٍ يثور
مستشاطاً بصاعقة الانتقام
من مواجع بغداد حتى رفَح
والختام الذي نشتهي فَرَحٌ أو حُفَر
لعلَّ الردى في ديارِ العروبةِ
خيرُ الحِرَف!

عراقٌ قراعٌ عقارٌ رقاع
يا لغرس قحطان من قرعٍ عاقر ،
يا لأمة نبتت من قحطٍ!
عربٌ رعبٌ ربعٌ عربونٌ عِبريٌّ يربوع
بعرٌ عِبَرٌ وبراعةُ عرّابٍ عابر
يا له من لسانٍ كزوبعةٍ
من هلامٍ وزئبق

تخرج الحربُ من البرحاءِ والربحِ
قبوراً تملأ الرُّحبَ
تمدُّ الحبرَ بحراً من دماءِ الأبرياء
والسلمُ الحِرباثيُّ المأمول؟
ماذا عن فردوسِ السلم؟

لمسات إسلام أسمال تمليس واستسلام
زنديقٌ أعمى مهووسٌ بالنزوان
(. . . وإنّا لا نراكِ فألمِسينا)
يا سلام!
كلاّباتُ صراعٍ مشدودة
بين لمسِ الحرير
وسملِ العيون
وملسِ الخصى
يا لها من لغة . .
يروقُ بها اللهوُ والهلوسة!
ويحتارُ في نسجها ملكُ العنكبوت
لغة تجعل الجسرَ رِجساً وجَرْساً وسِرجاً
وتقرن مملكةَ الشعرِ بالعرشِ والشرعِ والعُشرِ
في رِعشةٍ خاطفة
لترضي بطونَ قريش
وأسواقها الصاخبة

هل يمنحُ الأكرادُ للعربانِ في محنتهم
شيئاً من الإدراك؟
يا من رأى حامد بدرخان في منفاه
شاعرٌ محكومٌ بالإعدام
يسلخُ نهارَه في تعبيدِ الطرق

ويضيءُ الليلَ في صحبةِ أراغون؟
وأنتَ يا عبد الله أوجلان
حُيِّيتَ يا معلَّقا كابن الزبير
بين شعافِ اسكندرون والجولان
أما آن لهذا الفارسِ أن يترجل؟

مدنٌ دِمَنٌ ندمٌ
شامٌ شِيَم شؤمٌ ماش
يا نملُ لا تغادروا بيوتكم
شارون في الطريق
يلفُّ تحت إبطه النفطيَّ مسخَ الكوت
وينتشي ولاتُنا بالرقصِ في موكبِهِ
أو بلعقِ الأحذية
(من يَهنْ يسهلِ الهوانُ عليهِ . . .)

يا مصر ، ما بال زليخا تشتهي فتاها؟
تباركت مغامراتُ العشقِ والعشّاق
سيّان حالُ قميصِكِ المعروك
إنْ قُدَّ من قُبلٍ ومن دُبرٍ
كلُّ الدروبِ مآلها روما
والقمحُ للطاحون
هامانُ ما هانَ ولا تهاون

يومَ بناءِ الصرح
والجند لم تعملْ بما نهى فرعونُ عنه
أنسيتم ما فعل الهكسوس والرومان؟

حسبنا لغة القَطِران
قنطار من أقراط غجرية
أقطار شتّى مقطورات بأفاعٍ رقط
في طُرق تترامى بين الطارئ والتارك والطارق

حدثني ساجي أبو الشمقمق
عن بنتِه عن بعلِها عن شيخِه
إمامِ قندهارَ، قال:
(أعجبُ ما في العصرِ من آيات
مسطرةٌ من خطباءِ الجمعة
تحالفوا وأعلنوا حرباً على إبليس
مُجسَّداً بامرأةٍ مسكونةٍ بالشعرِ والحرية)
لكنَّه أضاف:
(لا بأسَ يا شباب،
لعلَّهم يحكون عن آبائهم في موسمِ الطلاق!)

وأنت يا أعجوبةَ الدولارِ يا ابنَ لادن
لا تركبْ رأسك يا غيفارا بني طالبان

أمُّ القرى لا تقرأ الذرَّةَ في الحرم
ولا تهادى موكبُ المغولِ في يثرب
من يخلط بين الأمنِ والإيمانِ والأماني؟
حبلُ المَيْنِ قصير
منقوع في أوشال مَنِيٍّ يُمنَى
قات قوت تقوى أفيونٌ قهوة
ولا وقت لإشباع سعارٍ تاريخي
وضَّاح في صندوق أم البنين
يرقد ملفوفاً بسروالها الحرير
والبردوني الشاعر
لم ينمِ الليلةَ في مخدعِ بلقيس :
(ما ذا أحدِّثُ عن بغداد يا أبتي؟
مليحة عاشقاها السلُّ والجربُ!)
وأنا في خليجِ العجم
أشتهي قبلةَ الموتِ من شفتَيْ بردى
وأدخلُ في ملكوتِ الغياب
فمن يسعفُ النايَ يا طَرَفة
إذا اجتاحت النارُ غابَ القصب؟
أطالع موتي على شرفةِ الليلِ
مستخفياً في عباءةِ ذئبٍ عجوز
وأغفو على أخطبوط اللغة
فسادٌ أسدافٌ إفسادٌ وسِفاد

لَبِناتٌ من طينٍ واحد
يرشحُ الفسقُ من السقفِ
ولا من حرج
فانتظرْ قِسطَكَ موفوراً مع الفقسِ الجديد

(الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانْ)
زبدٌ . . زبد . . .
فارحلْ مع الوحوشِ يا صعلوك
ولا تعشْ في عصمةِ الجواري
أو جيرةِ الملوك
احرصْ على الشعرةِ يا معاوية
وعلّمِ المحروسَ
كيفَ يأخذ البيعةَ من عاصيه عند اللحد
بالسيفِ ، بالحيلةِ أو بالطاعة
إنّ لله جنوداً من عسل!
لكنْ ، لا رأيَ لحاقن!
والرأيُ موقوفٌ على شفيرِ جُرُفٍ
يوشك أن يغوصَ أو ينهار
في أرجوان الفجر والجُراف والإرجاف والفرجار
ولم يَرِدْ ذلك في كتابِ الجفر
ولا حديثِ الجمجمة
لكنه يدخلُ في دوّامةِ اللغة

نزا زنى زان ونزّ حتى ثقلَ الميزان
يا ناعم الألفاظِ يا حلوَ المعاني
أَ في عُمانَ مرتعٌ للنعام؟
وهل آنستَ المها في صيرِ بني ياس؟
دبَيٌّ تصغير يواري
شهوةَ الجرادِ مقلياً على الأرزِّ والبرغل
لينعمَ الضيفُ بجودِ الأخوةِ الأعداء
- : سِرْ فلا كبت بك الفرس!
= : دام عُلا العِماد!

طوفي معي يا لغةَ الأعراب
بين جنونِ الصرفِ والرصيفِ والأصفار
سحرُ العبارةِ ينهلُ البركاتِ من حرسِ الخليفة
يا حسرةَ القطعانِ تسرحُ في حمى سِرحان!
قَرَمٌ إلى مرَقِ الحَمام أو الحريم أو الوحام
قمرٌ بلا رمقٍ ، وأرقامٌ بلا معنى
لها شبَهُ الرجالِ ولا رجال
الجنسُ بين السجنِ والنجاسة
نسجٌ شيطانيٌّ سافر
وحوانيت العطّارين تهزُّ الدنيا
بعجائبِ شرشِ الزلّوع
عسلٌ موصوفٌ لعلاجِ سعالِ المصدورين

واللسعُ أشهى ما يكون على الشفاهِ اللُّعس
ينبع الكفرُ من الفكرِ . . .
أغلقْ دورَ العلمِ- مراتعَ الشيطان
ولا تُعرِضْ عن غِشيانِ امرأةٍ فارك
ما دمت توفي بالأجور
وليأخذْ كلٌّ ذي حقٌّ حقَّه
أتظنُّ الشعبَ من عشبٍ بشع
أم من شبعِ التخمة؟
والبعلُ السوريُّ الزاهي في قرطاجنّة
هل جاء من البلعِ أم اللعب؟
أم من علبِ اللحمِ الفاسد؟
والبعث الكهنوتيُّ الخالد
هل كان سوى عبث صبياني
في رقعة شطرنج؟
تديرها سفيرةٌ وكلبُها المحاربُ القديمُ
في وكالةِ الأشباح
أخلاطُ سديمٍ في حربٍ كونية
بين رياحينِ الحرية
وسواطيرِ الطاغوتِ الأكبر

وقال لي أبو هشام ،
مستعرضاً أمجادَهم في غيابةِ المزَّة :

(تلك النياشينُ التي ضاقت بها صدورُهم
لو قُلِّدت بها الخيولُ
فازت بالسباق
أو زُيِّنت بها بغالُ المعصرة
لامتلأت عنابرُ الزيتونِ والأعناب
فيضاً من الخيرات .)

وقالت السيدةُ العجوزُ أمُّ حنظلة
في مهرجانِ كرةِ القدم :
(لا تشتروا كراتِكم بالعملة الصعبة
وتتركوا تلك الرؤوس الخاوية
تمرح كالجرذان في أبراجها!)

أقام الطغاة دكاكينهم في نزيف الجراح
وشقوا فلسطين فلساً وطين
وضعوا في خزائنهم أوَّلَ الفلذتين
(إكراماً للسلف الصالح)
وباعوا بقيتَها في المزاد
لرتقِ كراسيهم البالية

أهذه أندلس أخرى؟
أم أنَّ هولاكو أفاق واستردَّ عِزَّه التليد

مسلَّحاً أنيابَه بالصاعقِ النووي؟
كلُّ زمانٍ وله أكثرُ من تيمور
أهو استعمار أجنبي حقا
أم رِقٌّ وطنيٌّ أدهى وأمر؟!
العقمُ نسلُ القمع في زمنِ الطوائف
لا تمتقعْ واكتمْ شوَاظَ الداءِ في الأعماق

يكفينا طرباً ما أبدعه بوكاسا الثاني
كولونيلُ الصحراءِ الكبرى
في لوكربي
وهناك قياصرةٌ في الشرقِ الساهي
صارت نكتة . .
أَ تساوي تنكةَ نفطٍ خام
وعودَ كبريت؟!

وأنت يا قَصِير
لا تجدعْ أنفَك
ليحرزَ القيصرُ مجدَ انتصاره في تختِ الزبَّاء

أخاف من مهرِّجِ الخليفة
أن يوقظ ذكرى صقر قريش
أمويٌّ مطلوبٌ حيا أو ميتا

ما كان ليعنيه القصرُ أو الرقصُ الشرقيّ
لكنّما قرصُ الشمسِ مريبٌ ومخيف
ما دامت الوليمة
مفروشةً فوق الأشلاء
(لا يغرّنّكَ ما ترى من رجالٍ
إنَّ تحت الضلوعِ داءً دوياً . . .)
قلمٌ ملقٌ طمعاً في لقمةِ سم
قملٌ يستوطنُ في الألسنِ والألباب
وفي قاعِ المُقَلِ العشواء

يا لها من مزرعة عجيبة :
راعٍ أوحد أو بضعةُ رعيان
وأفواجٌ من ضواري الحراسةِ والصيدِ والتأديب
وألفُ قطيعٍ وقطيع!

ما الفرقُ بين (أيها الأخوةُ المواطنون . . .
ونكهةِ القهوةِ في أقبيةِ الرفاق؟)
لا شيء غير بلاغةِ اللغة
قفر فقر قرف
فرّق لتسود
لا رفقاً بقوارير الدار
العقل قِلعٌ للرحيل بلا مركب أو رياح

أو قلعة من علقٍ يجيد امتصاص الدماء

بركاتك ، يا مولانا دون كيشوت
كيف صارت سوأةُ النحسِ
إلى أسوةِ الحسنِ البهي؟
تراها من الفرصِ السانحة؟
وعريسُ السعدِ ما زال سريعَ الدعسِ
حتى يمسي عدسَ السعير

ثور من ثمرة شارون
يغدو روثا في شراتون
بزيادة تاء مستلّة
من خرتيت البيت الأبيض
ماذا لو صارت تاءُ الخرتيتِ الأولى
ياءً ، والياءُ المحصورةُ ألفاً ممدودة؟
هل من حرجٍ في التصريف؟
كلمات ملكاتٍ لكمات كدمات كاملة

تسألني بنتُ المستكفي :
(ما السرُّ في أقمشةِ القناعِ والسروال
حتى جرى تصنيفُها في طاعةِ السماء؟!)
لعلَّ القناعَ يزيد العناقَ اشتهاء

والقلبَ تنعشه القبل
وفي كتابِ الحملِ ما فيه من الإقناع

لا تخلعي الحجابَ يا عبَّاسة
حتى تغوصي في فراشِ البرمكيّ
ويمخرُ التمساحُ أغوارَ العباب
قريش جاءت من سمك القرش
والمسكُ من أدغالِ الشرق
والفرسُ الشقراءُ من الشام
أو من شريفِ مكة
ليضمنَ الكرسيَّ في حاضرةِ الخلافة
ويفتحَ الثغورَ كأيٍّ حصانٍ طروادي
لجحافلِ سايكس- بيكو
وقال لي غيلان :
(لا فرقَ بين عاهلٍ سمسار
يبيعُ حتى قبَّةَ الصخرة
ويهب المهاجرين الصفرَ من شواطئ الخزر
مفاتحَ الأقصى
وعاهرٍ يفترسُ الأطفال
إلا برأسِ المال
وزخرفِ اللغة!)

وقالت الشيخةُ يا بُنيَّتي :
لا تجعلي من خيفتي عليكِ
ناطوراً على تكةِ سروالك .
لا تنسَيْ تاء التأنيث
مربوطةً قبل الزفافِ بغشاءِ عنكبوت
مبسوطةً من بعد عقدةِ النكاح
لكلِّ طارقٍ جريء

بغداد يا عربان يا أتراك يا برامكة
عراقُ يا شيعةُ يا كلدانُ يا سنةُ يا أكرادُ يا آشورُ ويا صابئة
بغداد يا هولاكو
ويا عراقَ الكارثة
يا حقبةً من اغتيالِ العقل
وإتلافِ الذاكرة
يا وطناً حوَّله الرعاةُ والذئاب
ساحةَ كربٍ وبلاء
(وقبل الذئابِ ينغلُ دودُ الخل . . .)
عراق . . يا . .عر . .اق . .
يا . . ع . . ر . . ا . . ك . . .
ي . . ا . . ع . . ر . . ا . . ء . . .

خريف ٢٠٠٣

الحصان الخشبي

سهرة خاصة مع ممدوح عدوان

ضاقتِ الساعةُ
ساخ الليلُ في حمّى سكون الأرصفة
حقبة غادرها عشّاقُها
داخت رفوفُ الانتظار
ودخلنا في خُمارِ الأسئلة . . .

ليس من عادته أن يُخلفَ الموعدَ
أو ينسى أحبّاءَ السَّمَر
ربما راح يزورُ الوالدة
ربما طاف به سِربُ ظباءٍ
يعشقُ الشعرَ . . على بحّةِ ناي
ربما استوقفه ظلُّ غراب
ربما . . أو ربما . . أو . .
حسبنا أنّاً على مائدة الشاعرِ
لا نرهبُ جلاداً
ولا نسمحُ للبازار أن يغشى
فضاء الكلمة

موكب يختال في ملحمةِ الشعرِ
نشيد لا يماري أو يهادن
نتملّى شهوةَ الجمرِ
ولا نصغي لبومٍ لطمتنا بالخبر

***

رثتاك ، يا ممدوح ، أم كبدي
حضنت جلالَ السرِّ في نيسان؟
القومُ يحتربون في شبرٍ من الزبد
والشعر فوق الدرِّ والمرجان
قف يا أخي جنبي وخذ بيدي
غصت دروب الليل بالغيلان
قلبي هوى سقفاً بلا سندِ
وجزائرُ المنفى بلا عنوان
ومواسمُ الأحزانِ في بلدي
بحر بلا قاعٍ ولا شطآن

***

كيف أبكيك؟! وما زلت هنا
في شهقةِ الروحِ
وفي دفءِ العناق
لم تغبْ عنا ولم ترحلْ
مع الطيرِ المهاجر
ربما آثرت أن تتركنا بضع سويعاتٍ

نواري عجزنا ، نخبطُ
في حالٍ من البُحرانِ
بينا تستريح
في ظلال الزيزفون
علّه يثمرُ ألوانا من الطيب الشهي
تسند الروحَ إلى زيتونةِ الدارِ
يضيء الشعرُ معراجَ المحبّين
تداري وهجَ شلاّلٍ من الذكرى
وتدعوك إلى سدرتها الزهراء
أنداءُ السكينة
وبلا تلويحةٍ أو همسةٍ لهفى
ولا طيفِ التفاتة
تفرغ الكأسَ وتجتاز الجسور
أنت أدرى
أن ما يجري ويغلي ويفور
تحتها لم يكُ ماءً
بل دماء

***

دير ماما لم تزل في البالِ
خبزَ الأم ، باقاتٍ من الزعترِ والزوفا
ورمّانَ الجبال
كيف ينشقُّ جدارُ القلبِ شطرينِ -

جحيمين من الأوجاعِ ،
شطرٌ غادر الميناءَ في صحبةِ ممدوح
وشطرٌ يتداعى في خرابِ المرحلة

***

كم في حضورك تزهرُ الحفلة
ويموج ليلُ دمشقَ بالحبِّ
لو كان لي من أوَّلِ الرحلَة
أن أفتديك بحبَّةِ القلبِ
لحمدت ربي شاكراً فضلَه
أن خصَّني بجواره الرحبِ
ستظلُّ فينا حاملَ الشعلَة
وتلوك يوسفَ وحشةُ الجبِّ
روحي هنا مشبوبةُ الغُلَّة
وخطاك فوق مدارجِ الشُّهْبِ

***

أين يا ممدوح دربُ الجامعة؟
أين تيسير وهاني وثريًّا؟
أين فيروز الشهابيّ؟
أبو ناصيف ، شوَّاخ الفرات؟
أين نهر الجامعة؟
أترى صفصافه الحاني على أوجاعنا
كان يبكي ليواسينا عن الغُيَّابِ؟

أم يبكي علينا؟

نحن ، جيلَ الجسرِ ،
فرسانُ الطواحين . . وأحياناً ضحاياها
لم نكن يوما لنقتاتَ جراحَ الناسِ
أو نرضى بإذلالِ الوطن
والتشفِّي برزاياهُ
كما يفعل فرسانُ الرياحِ الموسميَّة

***

جيلٌ من الوجع الموشَّى بالتحدي والأمل
لم نمتْ بعدُ
وإن كنا تدرَّبنا على الموتِ الفلسطينيِّ
من قبل أريحا وسعارِ الجنرال
أجمِلْ بما (يُروَى عن الخنساء)
ليباركَ القسَّامُ طقسَ الموتِ بالشهادة

هذه أوراقنا . . .
معروضة للشمسِ والريحِ
وموج العابرين
بين أكشاك الجرائد
يا هَلاَ . . يا مرحبا
ممدوح يدعوكم إلى مائدة الذكرى

(يا بلادي التي علمتني البكاء)
كيف أنساكِ
وأنّاتُ النواعيرِ وأحزانُ ألوفِ الأمّهات
تعصرُ القلبَ . . طواحينَ زؤان
في مجاعاتِ سَفَرْ بَرْلِكْ .
هنا جيلٌ من الخيبةِ والحرمانِ والقهرِ
وما زال الغراب
يتفلّى في خرابِ المرحلة

صحفٌ مكشوفةٌ . . أوراقنا
لا تقبلُ الشطبَ أو التزويرَ
فارفعْها مرايا كاشفة
في وجوهٍ طمستها الأصبغة

طُفْ بنا
موجاً يغاوي ملكوت الكلمة
ولتكنْ سهرتُنا حتى أذانَ القبّرة
هاتِ حدّث عن طقوسِ الليلِ
لا ترأفْ بتشريح خفافيش الكهوف
واستفِضْ في كشفِ أعراضِ السعارِ القَبَلِيّ
وطنٌ يمتدُّ كالتابوتِ بين الماء والماء
بنوكٌ من دماءٍ . .

صفقاتٌ ومزارع
أُبرِمت في خانٍ بازارٍ عتيق
اقلبِ الصفحةَ واتركهم لعينٍ لا تنام
ولنواصلْ شجَنَ النجوى بعيداً
بانتظار الخاتمة
أنت تعرفهم (حيةً حيةً ، حنشاً حنشاً)
وأنا أعرف أشياء أخرى
فلندعْ سهرتنا بيضاء منهم . . .
تلك أفواجُ ذبابٍ وهوام
قد تصيب المائدة
بسموم المرحلة

***

ضاقت الساعةُ . . طال الانتظار
ربما أغفى قليلا في جوار المتنبي
ربما أعطى شكسبير إشارة
علَّه يترك هَمْلِتْ نائما
ربما أودعَ في الأوراقِ أسرارَ الغياب

***

طالتِ القيلولةُ ، انهَضْ يا صديقي . .
نكملِ السهرة
علي الجنديّ أسرى باكرا
وتمادى في الشراب

ألا ترى من حقنا أن نصطفيه
شيخَ الصعاليكِ الشباب؟!
. . . . . .
ثورة في مدن الرقّ
هل العاصي بلا حسٍّ ولا ذاكرةٍ؟
وكيف يهذي شيخنا الجنديّ
لدى طلول تدمر الجديدة؟
أيحسبُ الدنيا بلا راعٍ ولا بوّاب؟!
هاتِ حدِّثنا عن الأحلامِ ، عن ليل العبيد
عن شاعرِ الحرمانِ أو عن شاعرِ الوليمة
ومن تَراه سارقَ النارِ الجسور
بلال . .
أم وحشي . .
أم الحطيئة؟!
ليلُ دمشقَ يحتفي بالشعرِ والأصحاب
لا بأسَ أن ندعوه كرمى لك
«برلمان الكلمة»
هذا أميرُ الياسمينِ الدمشقيُّ نزار
ينعى على الأهلينَ من تنابلِ السلطان
(خبز وحشيش وقمر)
وها هو السيّاب– نايُ الشجنِ البابليُّ والمطر
(يصيح بالخليج :

يا واهبَ اللؤلؤ والردى)
خليل حاوي ينتشي بهاجس الحكمة
بين بيادر الجوع ونهر الرماد
(تولد الفكرةُ في السوقِ بغيا
ثم تقضي العمرَ في لفقِ البكارة!)
عبد الصبور يستعيد محنةَ الحلاج
ويحتفي بالناس في بلادي
(ربَّما لا يملك الواحدُ منهم حشوَ فم
وعلى كاهلهم عبءٌ ثقيل . .
عبءُ أن يولدَ في العتمةِ مصباحٌ جديد)
حدِّق هناك . .
ألا ترى خليلنا الخوري
يهتف من بغداد
(هات يا ساقي لنا كأسين :
إن دمشق ساهرة معي!)
ونجيب سرور
يبدع بحراً من أوجاعِ الحرية والحب
ويلحُّ علينا أن نوجزَه في قُبلة
والبردوني الطالع من صنعاء كالعقاب
يجمع بلقيس وأم البنين
وراقصة الأطلسي هيلاري
في تنورِ فراشٍ واحد

والفتى المعجون بالصخرِ الصعيديٌّ ينادي :
(لا تصالح!)
ولم يكن حامد بدرخان
يعيا من التغنّي بحلمِ غيفارا
وخفقات النجمة-الأرجوان
على دروبِ آسيا

يا عشّاقَ الحريّة
يا أصحابَ غيلانَ الدمشقي
يا أصفياء عبد القادر الحسيني-
فارس القسطل
وغسان كنفاني
وأبو علي مصطفى
والشيخ أحمد ياسين
يا شهداءَ الأمةِ المؤجّلين
أعلنوا البيعةَ للدينِ الجديد
جرجروا أعناقكم فوق الصراطِ النوويّ
واعبدوا آلهةَ السوقِ الجديدة
أو تعالوا . .
واستريحوا في نعيمِ الأقبية

***

يا أطفالَ الأحلامِ الكبرى
يا وهجَ صعاليكِ الأمّة
نحن ، فرسانَ الطواحينِ ، ضحايا قهرنا
فاتنا أن نسرق الوقتَ الذي يهدره حيتانُ روما
ربما فاتتنا أشياء بلا حصرٍ
ولكنا كسبنا كبرياء المقبرة
حسبنا أناً تسامينا على الجمرِ
فلم نخفض جبيناً أو نفرِّطْ بالكرامة
حسبنا أنا تماسكنا ولم نسقط
على مائدة منتفخة
بلحوم اللاهثين الفقراء

اقلبِ الصفحةَ . . واتركْ
جيفَ الوادي لغربانِ الرياحِ الموسمية
لا تسلْ يا صاحِ
من أين لهم هذا . . وتلك؟
قتلوا فينا بذورَ الأسئلة
وطنُ الشعر انتهى مزرعةً
ساحة حربٍ
صفقات دموية . . .
كيف نختار الطريق؟
كيف نبني أيكةً للفقراء . .

بين أنياب القبائل؟
كيف نبني قلعةً . . أو خيمةً
من رمِ التاريخِ
أو من لغةِ الصحراءِ
أو من زبدِ الأمواجِ
لا تضحكْ . . وخفِّفْ من هديرِ الجلجلة
أنا أدري أن ما تخفيه من قهرٍ
جحيمٌ لا يطاق
إن في أنفاسك الحرَّى غيوماً مثقلاتٍ بالمطر
هلاَّ أبنتَ ما الذي يبكيك؟

. . . . .

أبكي على المعرِّي
لأنه لم يعرفِ الحياة
أبكي على بغداد
أرثي لحالِ أمَّةٍ تحنو على الذئاب
وتمسخ الأحرارَ من أبنائها إلى قطيع
أبكي على الأطفال في مدارس الفلُّوجة
تدثَّروا بدمِهم وناموا
ولن يرَوْا نهايةَ المغول
أبكي على هكتور
كيف استهانَ بالحصانِ الخشبيِّ
وترك الأقزامَ يمنحونه طروادة؟

أهي على ضفافِ بردى أم دجلة؟
أرثي لمن لا يدركون ما وراء ضحكي
أبكي لأني لم أمتْ
كما يموتُ شجرُ الزيتونِ في غزَّةَ أو جِنين
أبكي من الحظِّ وما له من كيمياء(*)

***

يكفي أسى ولنقلبِ الصفحة
هات حدِّثْ عن ركامٍ يشبه البحر . . .
وعن أحواله المضطربة
(البحر لا يساق بالعصا
ولا يموت بالرصاص)
هات حدِّث عن مويجاتٍ وأسماكٍ صغيرة
تلوبُ في الشوارع العزلاء
أو تتلوّى في ظلام الأقبية
عن تماسيحَ وحيتانٍ ستبقى أبدا
سلطانةَ العبابِ والمواني

***

وطن مزرعة . . طاحونة . . أو مقبرة
هات حدِّث عن وحوش المزرعة!

(*) يقول ابن الرومي :

إن للحظ كـيـمـيـاء إذا مـا
مسَّ كلبـاً أحـالـه إنـسـانا

يكفي . . فلا تجنحْ بنا
يا فارسَ الرياحِ دون كيشوت!
كيف تنسى وزيرَك الأمينَ سانشو؟
هاتِ حدِّث عن حروبٍ لم نَخضها
عن قضايا خاسرة
ما لنا فيها سوى خُفَّيْ حُنَيْن

***

أبعِد غيومَ اليأسِ عنَّا
«فنحن محكومون بالأمل»
قالها سعد وغاب
«ونحن محكومون بالتحدِّي»
قلتها أنت وخضت المعركة
كلُّ شيءٍ زائلٌ إلا ضياءَ الشعرِ ،
أمطارَ الأسى في ملكوتِ الكلمة
من كتابِ الطين ، من رسمِ الكهوف
وإلى أقصى دبيبٍ
في مداراتِ الفضاء

هات حدِّث عن فساد الملح
كلُّ شيءٍ فاسد إلا حليبَ الأمَّهات
ألا ترى كم يعشقون العلبَ المُهرَّبة!
في جوٍّ سرطانيٍّ موبوء

كلُّ شيءٍ عرضةٌ للوباء
حتى دمُ الشاعرِ في القصيدة

***

اقلبِ الصفحةَ . . يكفي
(لا أنا مرعي . . ولا خالي أبو زيد الهلالي!)
ولندخلْ في بابِ جحيمٍ آخر
ما الذي تقرؤه من كوميديا سوداء
في جنباتِ هذا المسرحِ الدامي
من أدغالِ البيتِ الأبيض
حتى كهوف العسس اليعربيّ؟
ما الذي يملكه الشعرُ لدرءِ السرطانِ العالميّ؟
نلوذ بالدفاترِ العتيقة
لنفتحَ الجراح
على بوَّابةِ هيروشيما
من مجازرِ الهنودِ الحمر
وأحلام تحرير العبيد
حتى كابول وأشلاء الفلوجة
وليكنِ الجنونُ لائقاً
بدفاعك الصوفيّ
حتى تغمرَ شمسُ الحريَّة
عشّاقَ فلسطين
من أطفالِ النهرِ إلى حورياتِ البحر

وليكنِ الحداد لائقاً بإلكترا
وبراعة يوجين أونيل
في مصرعِ الجنرال الزاهي بأكاليلِ الغار
قبل فرحةِ الزنوج بتحطيم الأغلال

في أيِّ زمانٍ عشنا يا ممدوح؟
أكان فسحةً للصبا وقطوفِ الهوى؟
أم وحشاً خرافياً بعشرين قرنا
وألفِ مخلبٍ نووي؟!
بدأ بشيخنا الكواكبيِّ
مسكوناً بتشريحِ جثّةِ الاستبداد
وزها بالياس مرقص
خارجاً على عبادةِ ستالين
ولم ينتهِ بعبد الرحمن منيف
مبحراً بين مدنِ الملحِ وأرضِ السواد
فهل انتهى بهشام شرابي-
اللهبِ المكنونِ بين الجمرِ والرماد؟
***
لا بأسَ، يا ممدوح . .
دعني مع الأحبابِ أنتظرُ
وهجَ الحضورِ وبهجةَ اللقيا
الشامُ موعدنا . .

والشعرُ والمطرُ
والحبُّ في أعماقنا يحيا
سنظلُّ حتى يزهرَ القمرُ
سنظلُّ حتى آخرَ الدنيا
نرجو حضورَك في الضحا
نرجو حضورَك في المسا
نرجو . . وننتظرُ

***

أبحِرْ بنا في موكبِ الكَلِمِ
عبرَ السنا وكأننا أطياف
لا خوفَ من ريحٍ ولا ظُلَمِ
ما دمت فينا سيِّدَ المجداف
تسمو مشاعرُنا على الألمِ
لا السيفُ يُخرِسنا ولا السيَّاف
تمضي بنا كرهافةِ النسَمِ
وقلوبُنا تهفو إلى مصياف

***

طال السُّرى واختلطت كتائبُ الظلام
فلنسترحْ هنيهةً في حِمَى من سبقونا
أنت لم يصرعْك خلَلٌ في الأخلاط
لكن جبالاً من أعباءِ الأمَّة
أثقلت كاهلك . .

وما انحنيت
كم من منارات ٍغيّبها عصرُ الهوانِ العربيّ
فلنقلْ لهم سلاما ، يا قدوتنا المثلى
جمال حمدان ، أنطون مقدسي ، شاكر مصطفى ،
إحسان عباس ، سامي الدروبي ،
إدوارد سعيد ، الصادق النيهوم . . .
ولن ننسى طاغور وكازنتزاكي
معلمون أضاؤوا دروب الأجيال
وآخرون احتضنوا في وجيبِ القلوب
يقظةَ الكلمةِ الصافية
وكنوزَ النورِ الإنساني
وبراعمَ الشعرِ الجديد

***

ممدوح باقٍ بيننا ، وإن تمادى في السفر
باقٍ هنا في ضحكِ العيون
وفي أهازيجِ القلوب
سهرانُ بين الكأسِ والحاسوبِ والكتاب
فلننتظرْ حضورَه مع الربيع
فلنواصلِ النَّجوَى مع شيللي في وداع :
«لم يمتْ . . ولم ينمْ
لكنه استيقظ من حلم الحياة»!

– كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥

IX

أبجديَّة الينابيع

الطبعة الأولى : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٧

- « . . وسمِّي (الخريف) خريفاً لأنه تُخرَفُ فيه الثمارُ، أي تُجتَنى . . .»

(لسان العرب)

- الأطفال لا ينسون كيف تشيع القرية أبناءها الراحلين بمجامر البخور!

- لماذا تزداد الطفولة نضرةً ومحبةً كلما اقتربنا من نهاية الجسر؟!

أوراق متنـاثـرة

- ١ -

يحمل النهرُ أشواقَه
ويغنِّي رؤاه
يتلمَّسُ مجراه منتشياً بغرور الصِّبا
ربما هرباً من أسى
يشبه الذكريات . . .

***

من لسربِ الفراشاتِ
لو جُنَّ زَهواً بأعراسِ نيسانَ
وامتاح آلاءَ تموزَ حتى الثمالةِ
ثم انتهى مرهقاً في ظلالِ البيادر
ولكن أيلولَ باغته
فتهاوى شظايا
وجارت عليه رياح الخريف؟
ألوفُ الجميلاتِ عرَّشنَ
في أيكةِ القلبِ يوماً
وغادرنَ . . .

يا لاختمارِ المرارات
لم يبقَ في خاطرِ الكأسِ
غيرُ اختلاج السراب!

يكتم النهرُ لوعتَه بالقمر
يتملّى رِهافة فضته بانخطاف
ويحلم أن يرقص الليلَ
محتضناً وجهَه المرمريّ
ومن حوله قرية من نجوم
تفيض بأعراسها في الجهات
فانعموا باقتطاف المنى
يا شباب

***

يطرح النهرُ أشلاءَه في الضِّفاف
يفيضُ بأفراحه تارةً
وطوراً يضيقُ بأغلالهِ
يتلوّى
يكابرُ
يشقى
ويعيا . . .
ينوءُ بأوجاعِه
ويختم رحلتَه في سريرِ العباب

طيورٌ تلوذُ بجيرتهِ
وفي حضنه تستحمُّ الظِّباء
ولا تستسيغُ الحكاياتُ طعمَ الكرى
حقولٌ تحدِّث أخبارَه
والثمارُ التي رضعت من سجاياهُ
واكتنزت بالطيوب
أينعت
وانتهت في سلالِ الخريف

***

تنتهي رحلةُ النهرِ تحت ريشِ الغُراب
وتفورُ الحكاياتُ في زبدِ الموجِ
كان . . يا ما كان!
للينابيع ذاكرةٌ تتملَّى بهاءَ الثلوجِ
عندما أشعلت عرسَها في الجبال
فهل من حِمًى لبناتِ الدوالي
خلال طقوسِ المطر
سوى شهوةِ المعصرة؟!

- ٢ -

وِشاحُ الوردِ تغزله طيورُ الفجرِ
بين سكينةِ الحلاَّجِ في معراجِهِ
ومباهجِ السيَّاف

***

غيومٌ تعبرُ الأيَّامَ
لا تحنو على دِفلى
ولا تروي فمًا نشفانْ
وأطفال أعاروا للخرافِ
صلاتهم :
«سلِّمْ لله . . يا قلبْ تسلمْ!»

***

رياح تقرأ البشرى
وأنفاسُ الصبايا أُشرِبتْ بالطيبِ
تنتظر الذي يأتي
ولا يأتي
على فرسٍ من الأحلامِ

أو سيلٍ من الغربان!

***

حكايات ترددها العجائزُ

في ليالي الزمهريرِ

وتكتم الآهاتِ في الآبار

لعلَّ هناك فجراً

لم يلوِّنْ خفيةً

من أرجوانِ العرسِ

منديلَه

لعلَّ . . لعلَّ . . .

يا ربَّاه!

ألم تشبع خناجرُ شهريارَ

من الأقاحي . .

آنَ يغتسلُ الصباحُ

بمهرجانِ الدم؟!

- ٣ -

آهةٌ قربَ موقدةِ الشيحِ
يصغي لها عسسُ الفجرِ ضجرانَ
تنسلُّ ريبتُه في الزوايا
تفاجئه وردةُ الصبحِ معتكرا
فيطيرُ النعاس
أصابع تحنو على سرَّةِ الطفلِ
تربطها بخيوط الحريرِ
وتمسحها
بمزيج من الزيتِ والملحِ
لو تسْعفُ الدايةُ الحيزبون
برياحينَ يابسةٍ
أو توالي حبق

***

طالتِ الحربُ..
فيقًا لديغول
يا للربيع الضمنين!

كيف يأتي بلا كَمْأةٍ أو مطر؟
ألا يستحي من أسى عاشقيه؟!

***

رفوفُ حمام تهاجرُ
راعٍ يرد القطيّعَ الذي أنكرته البراري
وقدْ كسر النايَ . . واعتزل السالفة
وأمٌّ تُجمِّعُ أفراخها حولَ مائدةٍ ساخنة
من حَساء البصل
رغيفٌ يوزِّعه الحرصُ
خوفَ اشتدادِ المجاعةِ
بين الأكفِّ العجاف
ولا قمحَ يكفي لأقراصِ عيد
ولا عيدَ في الأفقِ
لا زائرٌ من وراء البحار
ولا من بريد
ولا موعد لعروسينِ
يجترحان البشارة
قبيل احتدامِ الحصاد .

ـ ٤ ـ

طفلةٌ تخطفُ الجمرَ
أو ترشفُ الرّاحَ
من بيدرِ العشقِ
في ضحوةِ الأربعين
ويلتبس الفارسُ الشهمُ
بالمطر الموسمي

***

لماذا تضيقُ الثريا بميعادها
فلا تؤنسُ الساهرين؟
ولا الصيفُ يكشفُ أسرارَه!
تبيتُ العناقيدُ مغسولةً بالندى
ولا من عروس تزور الكروم
لأن الدوالي تضنُّ بعشّاقها
وتغريهم باجتراح المعاصي

***

مرايا توزِّعها غانياتُ الغجر

إذا كسرة من شعير
حفنتا برغل أو ذرة
أسكتت صرخاتِ العجِيّ .

ـ ٥ ـ

السرابُ الذي لفَّقته الرغائبُ
فوق هجيرِ الرمال
كان يخفي لواعجَه في دمي
سحبٌ من خفافيش روما
تداعبُ غربانَ مكَّةَ في سكرةِ الليلِ
لو يثمرُ الزيزفون!
ولا بأسَ أن يدهنوا شهواتِ الأمير
بزيتِ الثعابينِ أو بلسمِ الجلَّنار
ليستكملَ الربعُ أفراحَهم
في مواسم سافو
قُبيلَ هلالِ الصيام

***

مجامرُ عابقةٌ بالبَخور
نسوةٌ يتمسَّحنَ بالعتباتِ احتساباً
ويلهجن بالأدعيات
كأقنعة مسرحيَّة

ولا من فتى يطفئ الغلمةَ اللاهبة
في جروفِ البحيراتِ
أو في شعابِ الحرير .

- ٦ -

يدقُّ زجاجَ اغترابي سؤالٌ
قضى فيه غيلانُ نحبَه
أيكشفُ سربُ القطا عن سرائرِ ميَّةَ
عند اختلاجِ الذبيحةِ
في دفقةِ الأرجوان؟
شجرٌ كالحٌ يلطمُ النافذة
وأنا في فراشي
أتملّى وشاحَ الغروبِ الأخير

***

طفلة تنعش الروحَ
عند افترارِ سُهيل
تجيء بها ومضة كالشهيق الأخير
وعاصفة من تباريحِ مالك
تداعبُ وادي الغضا
ونهرٌ من الذكرياتِ البهيَّة
يداري جراحَ القصيدة

لو يعود زمانُ الصعاليكِ . .
يا مرحبا بغواشي جهنَّمَ!
ما لي وتلك الفتوحات . .
أشقى ، أغوص بأوحالها
وتنسفني ريحُها في العراء؟!

- ٧ -

حبّةُ الماءِ
طارت بها نزوةُ الشمسِ
فاختبأت في حرير الغمام
يغزل النهرُ سيرتَه
بين ثلجِ الجبالِ
وجوعِ الحقولِ
ومهدِ البحار
تكتم الريحُ بهجتَها
وهي ترعى قطيعَ الغيوم
يتملّى خليفةُ بغداد موكبَها :
«ارحلي أينما تشتهين . . .»
ويسعده أن تفي
بما وعدت من خراج .

- ٨ -

تنحني السنبلة
مثقلا رأسُها باللآلي
وتكتم سرَّ الحكاية
فلا الغيمُ يدري
كيف شقّت عباءتها
ولم تستطبْ نومَها في التراب
ولا الطيرُ تعرف من أين جاءت
بما عندها من كنوز
وحدها الشمسُ تخفي روائعَ سيرتها
وهي تمرح بين الفصول
ولكنها لا تبوح .

- ٩ -

عمود من الوهجِ
شلاَّلُ برق
وإعصارُ جِنِّيةٍ يخطفُ اللبَّ
أنثى تضيءُ عروقَ التَّشهِّي
وتستنفرُ الغلمةَ الداثخة
جسد امرأة تستحمّ
تحت نافورةِ الشمسِ
أو في غديرِ القمر
آخ ، يا حسرتي . . .
ويا لوعة العود في الجمرة
ويا لاستعارِ الجنون!
رؤًى أدمنت جوعَها
وانتشت بالوجعِ
لم تبارحْ فضاءَ الطفولة
ولم ترعَ في آخرِ الدربِ
شيخوخةَ الذاكرة

***

فتنةٌ . . أتملّى شواردَها
بألوفِ الحواس
وأرشفُ آلاءَها
قطرةً . . قطرةً . .
سُرَّةً . . ربوةً . . زاوية
كحوريّة النبع
تشدو بفتنتهاَ صبواتُ الرياح
وتُوقظُ مجدَ أثينا
توزِّع حكمتها في البحار
لوحةٌ . . كلهاثِ البراكينِ
تهمي رؤاها على شغفي
وتزجي لعشّاقها
مطرا قادما
من غواياتِ دارةِ جلجل
***
عيشةٌ صبُّها طَرَفة
في خصالٍ ثلاث
واستعاذَ بـ «لولا»
ثم أفرغ في حلقه
بركاتِ النبيذِ الأخير
ولم يحنِ رأسَه
لطاغيةٍ أو إله!

- ١٠ -

كم تحنُّ ليالي البيادر
إلى طيش فتيانها
وكم يشتهي عسس الكرمِ
إغفاءةً في الجوارا
سماءٌ مطرَّزةٌ بالشموع
كأن الثُّريَّا
حُبيباتُ عنقودِ ماس
قلوبٌ معلَّقةٌ في وشاحِ السديم
ونهربُ خوفَ الغوايةِ
خوفَ انتقامِ السماء
من حوارِ النجوم
وفَرْطِ لآلئها في صحون السَّمَر.

- ١١ -

خطوةٌ في الماءِ

لا تهفو لها دِفلى

ولا تسعفُ دوريًا

وباقي خطواتي في اليباب

***

نزوةٌ في جسدِ الماءِ

تغاوي ليلةَ الفتحِ

ألا تزهرُ أو تثمرُ

لو طافَ بها

في سكرةِ الليلِ خيالٌ

من تَمارا أو سعاد؟

***

شهقةٌ في جوهرِ الماءِ

يموتُ البحرُ منبوذاً

بلا شمسٍ ولا ريحٍ

ولا عاريةٍ سمراءَ

من زائير أو كوبا
ولا شقراءَ
من وهجِ الشمال .

- ١٢ -

مطر في شغفِ اللوزِ
وفي قلبي مطر
لم يكن نيسان يغرينا
بأعشاش العصافيرِ
ولكنَّ فراخَ اللوزِ
تغري بالجنون
يا شياطين القرى
ماذا تركتم للصبايا
ووحام الأمهات؟
كيف تنسون العشايا
تتلقَّاكم بآلاء الكبار
من سياط الخيزران؟!

- ١٣ -

هواجسُ تُغري ليالي تأبَّط شراً
بجزِّ الرؤوسِ التي أينعتْ . . .
يا ضواري بني لبوةٍ
من أنينِ النواعيرِ
حتى جراحِ النخيل
أتحميكِ من لعنةِ الدمِ
روحُ العشيرة؟
خوابي سجاحٍ معتَّقة في الظلال
أما في اليمامةِ من فارسٍ
مولع بالحراثة؟
أترنوَ إلى شهوةِ السيفِ
أم لذَّةِ الثغرِ ، يا عنترة . . .
والغرابُ يشكُّ مخالبَه في الوريد؟
وهل ردت الخمرُ عنك المراراتِ
يا طرفة؟

- ١٤ -

موجةٌ تولد من أحلام عاشق
نسغها أصفى وأشهى
من ينابيع الجبال
نحن لسنا من رواة العنعنات
رِمَمُ الأسلافِ ليست من لُبانٍ
صالح للاجترار
لم نكُن تركاً ولا كرداً
ولا من عربٍ أو من عجَمْ
نحن من غرسِ التجلّي
في انخطافات الصعاليكِ
لدى إشراقةِ الرؤيا بوعدٍ أو بشارة
آن للإعصار أن ينسفَ أوثانَ الرماد
ويهلَّ الفجرُ من ضحكةِ أنثى
أطلقت حريَّةَ العشقِ إلى آمادها
ولتمتْ في غيظها الدامي
خفافيشُ الظلام .

- ١٥ -

الدوالي التي أرضعتنا هناك
رحيق مسرّاتها
في طقوس البيادر
ومزجنا عصائرها بالثلوج
لم تخلِّف طوال الشتاء
في عيون الصغار
غير لسع الدخان

***

تدور الحكاياتُ بين الليالي
على وقع فرسانها الطالعين
من كهوف الزمان
هنا عنترة . .
هنالك سيفُ اليمن . .
وهذا أميرُ الوصايا كليب
سابحٌ في دمه
وزيرُ النساءِ المهلهل

يلوبُ
ويغلي
ويوغلُ في لعبةِ الدمِ
حتى يلوذَ الصغار
بأجنحةِ الأمَّهات
ولا بدَّ من ساعةٍ حلوةٍ
ترشُّ على الربعِ مسكَ الختام
في حمى شهرزَاد .

- ١٦ -

حائر بين وهج الحروف
في سمَر الندامى
ورغوة التكايا
عند انهيار الرجل المريض
يا لَهَوَانِ الذّاكرة
كيف انتهت حاضرةُ الخلافة
هاويةً مردومةً بالحَمَأ الكلسيّ؟
أكان تاريخُ بني فلان
قافلةً من غانياتِ الصربِ
أو غلمانِ روما
وسمرقند وبودابست
عند نخّاسٍ خصيّ؟

- ١٧ -

الروابي شهبٌ تبهره
تحت انسكابِ الماءِ
شلاّل من الأطيابِ
وهجٌ عاصفٌ يغزله البرقُ
على ناي المطر . . .

ويعبق التنور بالبخار
وتسرح الظلال والطيوب
في مسارب الزوايا
تختطف المأخوذَ آياتٌ وهلوسات
لعلها فتنة أنثى ساعةَ استحمام
تنشر إشعاعاتها في لوعةِ المكان
وتُشعلُ الدوار
بين حدود الوهم والغواية
تباركت سرائرُ الجسد .

- ١٨ -

أغوص في أشيائيَ الصغيرة
لعل ريحاً أو سنا سحابة
يزفُّ لي بشائرَ الفرَج

***

أبي ينام دهرَه في التلةِ المجاورة
مكتفيا بالفاتحة
أصحابه ينتظرون سهراتِ الأنسِ
في سماحةِ البيادر
ويزدهي نهارُهم بالمنقلة(*)

***

(*) المنقلة : لعبة ريفية مؤلفة من مستطيل خشبي فيه ١٤ حفرة صغيرة رتبة على صفين متناظرين ، في كل صف ٧ حفر . . ويوضع في كل حفرة ٧ حصيات صغيرة ناعمة تؤخذ من ضفة نهر أو مجرى سيل . يقوم باللعب شخصان متقابلان ، بنثر الحصى في الحفر ، واحدة فواحدة ، بدءاً من يمين اللاعب ، ويواصلان المنافسة بالتناوب . يربح اللاعب حصاتين أو أربع إذا انتهى بحفرة فيها حصاة واحدة أو ثلاث . والفائز في النهاية من يحصل على أكثر من نصف العدد (٤٩) حصاة .

أمي وراء شكوَةِ اللبن
تهمُّ أن تستخلص الزبدة
وضجة الصغار تحت الدالية
تحفزها أن ترفعَ المِقشّة
قبل اندلاع المعركة

***

وعندما يختمر العجين
يرابطون جانبَ التنُّور
ويخطفون الأرغفة
عدواً إلى مسكبة البصل
يزنِّرون لقمةَ الصباح
بالخضرة الشهية
ويزرعون الأفقَ الورديَّ بالأحلام .

- ١٩ -

تململ الشُّبّاك في غرفتها
لعلها تحنو على سياجه
بنظرةِ الألفةِ
أو بلمسةِ الرضا
أو لهفةِ الحنان
يكفيه طيباً أنه يجود
بالضوءِ والأمانِ والهواء
وخفقانِ النجمِ في الأقاصي
يستكشفُ الطالع
ويمطرُ الصباحَ بالهديل

***

ما بالُ هذا الحارسِ المريب
ينسى . . فلا يخبرها
ما تفعل العيونُ
والأنسام
خلال طقسِ البوح والتعرّي؟

أليس من حقِّ المرايا
أن تسيح في مدائنِ الجسد؟!

***

لو يَخرجُ الشبّاكُ عن سكوتِه
لأدركت سيدةُ النّارَنْج
كم تحرثُ العيونُ
والرياحُ
والنجومُ
في حقولها . . .
فيا لجَوعِ الغرباء!
متى؟ وكَيفَ يدركُ الشبع؟

- ٢٠ -

يرقص الدوريُّ مأخوذاً بأنثاه

ولا يعنيه أن تلتهمَ الغربانُ

منثورَ البيادر

«بهجة الدنيا . . فضاء وحَبيبة» .

***

جَمَل يحرسُ بابَ المملكة

- أحضرِ الدوريَّ ، يا هذا . .

وحاذرْ أن يروغ

***

«سيدي يدعوكَ . . .»

- اخرسْ وانصرفْ . .

قبلَ أن أسلخَ جلدَكَ!

***

«حِلمَكم ، يا فائضَ الحكمةِ . .

مسعاي إليه خابَ . . .

لا طاقةَ لي . . .

عبدكم لم يمتثلْ . .
هَمَّ بأنْ . . .
رحماك ، يا مولاي!»

***

ضِحكةٌ هزّت فضاءَ العرشِ
وانداحت إلى أيكِ النعيم :
«آه ، ما أحلى طقوسَ العشقِ!
بلقيسُ . . .
غداً تكشفُ لي عن كنزها

***

في ذَرا مملكتي
لا صوتَ أشهى
من هسيسِ الجسدِ المعجونِ بالحمّى . .
يظلُّ الهدهد المنقوع في ريبته
كاتمَ أسراري ومغنى ثقتي
لا أميراً للعيونِ الراصدة
بورك الحبُّ
وطوبى للطيورِ العاصية!» .

- ٢١ -

طفلة ترعى خرافَ الأهلِ
في آخرِ أيامِ الربيع
لفحتها قبلاتُ الشمسِ
لا غيمَ يقيها جمرةَ الوادي
ولا ظلٌّ الشجر
يسعفُ الوردةَ من دوّامةِ الحمّى
ولدغ الهاجرة
وحده اللصُّ الذي يرصدها
أخفى سعارَ الذئبِ
في سحنةِ عاشق

***

ذهلت ساقيةُ العنّابِ
لما كشفت عن ساقِها
وانحنت . .
أهي تروي عطشاً
أم تبترد؟

***

أقبل الذئبُ وحيًّا
واستماح
راجياً أن يطفئَ القيظَ
وقد طاب الجوار

***

الخرافُ انكفأت نحو الحمى
قبل الغروب
وتظلُّ الساقية
شاهداً أخرس
وعلى حافاتِها آثارُ دم .

- ٢٢ -

ضجرت فزّاعةُ الحقلِ :
متى أرتاح من أكذوبةِ الناسِ
ومن جهلِ الطيور؟
كيف أحمي ثروة لا شأن لي فيها؟
ولا من عابر يأسو شقائي
أو يداوي وحشتي!

***

عالمٌ يحسبُ أني
خرقةٌ منشورةٌ فوق صليب
هيكلٌ من خشبٍ
تُعوزِه الروحُ
وأمطار الربيع
في شرايين الشجر

***

عالمٌ ينخرُه داءُ الكلب
ليس أهلا لرثائي .

- ٢٣ -

وهذا مدار جديد . . .
صبَّتِ الشمسُ أنفاسَها
في دمي
ونامت على كتف البحرِ
مغسولةً بالرمال
تغوصُ الجميلاتُ
في زبد الموجِ
ينقضُّ سربٌ النوارسِ لهفانَ
من أين هلَّت نجومُ المدار؟
مَنِ افترعَ السرَّ؟
من فتَّقَ الصدفات
ليخرج هذي الكنوز؟
ويودعَها في ضميرِ العباب؟!

***

ويغفو مدارٌ
ويصحو مدار
وتشعلُ أجنحةَ البحرِ في وهجها
صبواتُ المدار .

- ٢٤ -

طائر شكَّ منقارهُ
بين رمانتين
غاص حتى اختلى بالشغاف
ولكنه جُنَّ . . لا يرتوي
ربما خذلته الرياح
ربما فاته موسم النَّزَوَان
فحلَّقَ يبغي وصالَ الثريا
(آه من قلة الزاد وبعد الطرق!)
لوى عنقه . . .
(القناعة كنز . . وحسبي نعيمُ السلامة)
وحطَّ على دارةِ السرطان

***

لو يطلُّ على وحشتي بردى
لما أمطرت حِمماً في الجوار .

ـ ٢٥ ـ

دخلت في لجَّةِ الفيروزِ
نشوى بالعناق
تحضنُ الكونَ
وترتاد الأقاصي
من جذورِ البَدءِ
حتى نشوةِ التفَّاح
وتداري عن عيونِ الجائعين
ثمرَ الفردوسِ
لكنَّ العُباب
راح يخفي ضحكة في عبِّهِ
وهي لا تدري بأنَّ الماءَ
يستقصي خفاياها
ولوعاً بالغواياتِ
ويرتاد التفاصيلَ
ولا يخجلُ من
سَبرِ تهاويلِ التشهِّي
واجتراحِ الموبقاتِ العشرِ
في كشفِ الغطاء .

- ٢٦ -

عاشقٌ لم يتخطَّ السابعة
لغةُ الشِّيحِ تجافيهِ
وتختالُ بأمواجِ الدخان
كلَّما استفحلَ سلطانُ الشتاء
يندبُ العاشقُ بؤسَ الذاكرة
البوادي نَسِيت أطفالَها
عرباتٌ وفؤوسٌ ضارية
وكرومٌ حلقتها الغزوات
زمن ولّى . . .
فما يجديك من نبشِ القبور؟
يتقنُ الشيحُ اصطيادَ الزرعِ
في عيد البيادر
وعلى أنقاضه تبني النِّمال
قريةَ الأحلام
ويلمُّ العاشقُ المخذولُ
أطرافَ النشيد .

- ٢٧ -

لا تنفخِ اللبن
يا من كواك الحليب
عِلّتك الكبرى بلا طبيب
حتى يواري داءَك الكفن
دنياك لا تبنى بلا تخريب
أرجوحةٌ مشدودةُ الأمراسِ
بين الجمرِ والرماد
وأنت كالمأخوذ بين السُّمِّ والعسل
كم تشتهي وصالَ خضراءِ الدمن!
الحبُّ لا يزهو بلا تجريب
والقمحُ لا ينمو
إلا مع الحراثِ والمطر
حسبُك يا غريب
أنشوطةٌ مكنونةٌ في الذاكرة
كان اسمَها «الوطن»
فلا تَخَفْ أن تدفعَ الثَّمَن

يوماً كما الحلاَّج
مسمَّراً على جدارِ الليلِ
بين وحشةِ الغربة
ولعنةِ الرغيف
. . . . . .
تباركت عرائسُ الحرِّيـَّة!

- ٢٨ -

إلى ماريانا . . .

أنتِ لستِ ملاكاً
ولا امرأةَ المعجزة
وإن كنتِ في سكرة الليلِ
أغلى رياحينِ قلبي
ما أنتِ إلا ماريانا
سيدةَ الحلمِ التي
فاض بها نورُ التجلّي
في نشيدِ لوركا
باليسرى
تحضنُ أطفالَ العالم
وتنسجُ باليمنى
راياتِ الحرية
بخيوطٍ من لهبٍ صوفيّ
تنهلُ من حبّةِ قلبي .

- ٢٩ -

أفقٌ آخرُ يغشاه الغراب

مطرٌ من وحشةٍ

يصفعُ قلبي

الفراشاتُ استكانت

ترشفُ الأحلامَ في عبٍّ الشجر

والقماري هجعت

والتفَّتِ الأعناقُ بالأعناقِ

وافترَّت أساريرُ الهلال

وأنا في دبقِ الليلِ

أداري أفعواناً

لا يجافي أو ينام

وعلى أرجوحةِ الموجِ

يرفُّ الشعرُ كالحمَّى

ولا من غفوةٍ أو هذيان

***

يبست زوَّادةُ المنفى . . .

فهل أنتظرُ الغيمَ الذي تأتي به
ريحُ الشمال؟
بردى . . .
يا بردى . . .
يا برداه!
متى . . متى . .
تحضنُ روحي في حناياكَ
وتخفي سكراتِ لوعتي
في عاصفٍ من الجنون
أو حفنتَيْ تراب؟

- ٣٠ -

تدورُ الليالي . .
تصبُّ مراراتِها في دمي
أغصُّ بأشواكها
كمن يتغذى شظايا زجاج
تلوكُ عظامي رحاها
وتسقي شراهتها من دمي

. . .

يجورُ الضنى ويطولُ السهاد
أعاركُ ساعاتِيَ الباردة
ولا من خيالٍ حميم
ولا من عزاء
سوى خفقةِ البُوم في النافذة
وظلٌّ الغراب .

- ٣١ -

عبست . .

وجه السماءِ اربدَّ

مشحوناً بأنواءِ المدار

السوافي نكَّست رايتها

وامتقع الورد الشآميُّ

فهل تقوى على البوحِ

مرايا بردى؟

ماذا تقولُ أمُّها البعيدة

لو صادفت طفلتَها

مهتوكة السترِ

ولا من ملجأ أو حاضنة؟

***

خيَّمت أغربةُ القهرِ

على المقهى

وفاض الغيمُ محموماً

بأشجان المطر

***

سَحَبَتْ منديلَها . .
لو يُسعفُ المنديلُ ظبياً
بعثرت أحشاءه الذؤبان
لو يَعصبُ جرحا غائرا
في شهقةِ القلبِ
ولكنَّ فتاها . .
غارق في محنةِ الجوّالِ
يستجدي رضا جنكيز خان
وهي إبريقٌ من الزيتِ ارتمى
بين نارينِ
فهل من فُرجةٍ غيرُ الفرار؟!
ما الذي ينتابُ قرنَ الثورِ
إن مادت بنا أرجوحةُ الغبراءِ
لولا نشوة التبغِ
وآلاء الدخان؟

ـ ٣٢ ـ *إلى سِنمّار . . .*

حمامة بيضاء في الشُّبَّاك
تقول لي :
«هيا . . ألم تسمعْ صياحَ الديك؟»
ـ : حِلمَكِ ، يا بشارةَ الأمان
ضاع الفتى ما بين ديكِ العرش
وديكِ أمِّ ليلى
أيهما أحقُّ بالطاعة!

***

في آخر الشرفة
تنسلخ الحمامة
عن ريشِها الفضيِّ
يتَّخذ الغراب
هيئته العريقة
لنبدأ الرحلةَ في غلائل السديم

***

تبارك السر الذي
تزهو به عرائسُ الحرِّيّة
وليصدحِ النشيد
ملوّنا بدمك الزّاهي
يا بانيَ الآطام!

بانتظار المطر

جمل ينيخ على فراشة
سمك تُشيِّعه الرمال
جبلٌ على صدري
وما في الليل من سَعَفٍ
لأَسندَ سقف روحي
قبل أن ينهارَ
عند غواية السرطان

***

ليلُ الصَّعاليكِ استدارَ
على سباقِ الهجنِ
يستر عورة مدهونة بالزيتِ
ما لي يدٌ في شهقةِ الميزابِ
أو في ضربة الشمسِ
ولا في الخيمةِ الدكناءِ
من نجمٍ حفيٍّ بالبشارة

***

مَن بثَّ في غيم الحكايةِ
أرجوانَ سرابه الزاهي
أتدري طفلةُ النَّارنجِ
كم يرسو على غدِها وصدري
من جبال؟
يا زرقة التابوتِ
والملكوتِ
طال الانتظار
وأنا أحدِّق فيِ سديمٍ
لا أطيقُ خواءه الساجي
وأحلم بالمطر.

طيور الغربة

دجاجُ الهندِ فوق مجاثم الياقوتِ
يسترخي
وينتظر الأذانَ
لعل جوَّ الصيفِ ألطفُ
في حمى الجامع

***

صلاةُ الفجرِ أدركها النعاسُ
فواصلَ الغلمانُ سيرةَ ليلهم
واعتلَّتِ الكلمات
فلا تبرحْ طقوسَ العشقِ
في وهجِ الصبا النجديِّ
كُرمَى لابنِ آوى
أو دعاوى غبطةٍ زَبَديّة
أفتى بها نخّاس!

مجاعة

لم تزلْ مدنفاً بالطَّوى . . .
(يا لبؤسِ الخطيئة!)
والرياحينُ حولكَ ما زلنَ
أشهى وأبهى
حرارةُ أجسادهنَّ
تزلزلُ روحَ المعرِّيِّ
وهجُ الحنينِ يجوبُ المدار
وينثرُ أيامَك الخاوية
لهباً في العراء
وفي الحضرةِ الأنثويَّةِ
عند اشتعال المواسمِ
أو في صقيع الغياب
أريجُ الزوايا
يدوِّخ ذائقةَ النَّهِرِ
يرتدُّ محتمياً بالضفاف
المجاعةُ في الروح
في جوهرِ الطِّينِ
كيف الخلاص؟
وهل من شفاء؟!

عرس بوبي

بوران في حاكورةِ الدفلى
ترعى طقوسَ المهرجان
مشغولةً بكلبها الثلجيّ
كيف اختلى بعِرسِه وفاض
بالوجدِ حتى دوَّخ الهواء
وعسَّلت مراشفُ الدوالي

***

بوران سالت في رحيقِ الوهجِ
وانداح الذهولُ في حميمِ التجربة
يا لوعتي ، لو تُرجعُ الليالي
ما سرقت وبدَّدت
من فُرَصِ الربيع

***

لمَّا قضى رغبتَه بوبي
مبللا بنشوة اللقاء
وحاولوا إبعاده
بكى كأطفال الفطام

***

مبارك زفافُك الوحشيُّ يا بوبي

يا ليت أصحابَك يوماً
يدركون السرا
لو يتقنُ الرجال
نَزْراً ضئيلاً ، بعضَ ما لديكَ
من حرارةِ العشقِ
وتجديد «رجوع الشيخِ . . .»
في هندسةِ الوصال
ما كانتِ الدنيا
بمثلِ هذا العطبِ الروحيِّ .

انخطاف

بين تراويحِ انخطافي
بالحضور والسفور والغياب
يسند روحي
وجهُك الطالعُ في المرآة
بلا مساحيقَ ولا حجاب
كيف جمعت الكون في ثلاثة :
النورُ والنَّميرُ والظلال
الفُلكُ والتَّرحالُ والعُباب
معذرةً ، يا طفلةَ النارنج
أيامُنا العجفاءُ لا تليق
بنفحاتِ الياسمين
في وهلةِ التَّجلِّي
خلِّي بساتيني بلا أمطار
ولا تبوحي لابنِ إنسيٍّ ولا جنٍّ
بسرِّ التجربة .

لؤلؤة

سيدة الرَّيحانِ في الشُّبّـاك
تعلِّمُ الطيورَ والرياح
مبادئ الحرية

قلبي على وشاحكِ المحلول
يوشك أن يبوح
وأنت بين الوهج والنعاس
مائدةٌ مترفةُ الألوانِ
لا تنقصُها الخمور

الأرنب الملفوف بالحرير
يشهق للقنّاص
وأنتِ في محارةِ الوحشة
لؤلؤةٌ تنتظرُ الغوّاص .

إسراء

دروبي كلُّها لا تنتهي
إلا إلى بابِك
فهل يُرجى
سوى الذَّوبانِ في جمرِ الحبيبةِ
واختماري في حمى آلائهِ
جِسْرٌ لمحرابِك

***

يهزُّ الليلَ إسرائي
على أملِ اللقاءِ بطيفها
في عيدنا المقطوفِ
من ورديِّ أعنابِك
ويختزلُ الطباقَ السبعَ معراجي
إذا رشَّت وسادتَها
بأنفاسِ الخُزامَى
واستباحت ياسمينَ الشام
في مكنونِ أطيابِك .

بحران

تحارُ المرايا
بأيِّ العصاراتِ ترسمُ
وجهَ الغزالةِ
بالعشبِ ، بالطينِ ، بالمسكِ
أم بالضياء؟

***

وألمحُ في آخر الدربِ
لوعةَ قلبي
تُريقُ رؤاها
على صفحةِ الشفقِ المستكين
ولا من سُنونوّةٍ في الجوار
ولا من نديم .

سبعون خريفاً

- ١ -

قبيل الغروبِ الموشّحِ بالزعفران
أبو مِرارٍ يتلفّت . . .
(أوّاهِ ، يا أبا العلاء!
ما أشبهَ الذاكرة الهرمة
برحىً تطحنُ قرونا!)
الدربُ يتلوّى بعيداً . . بعيداً . .
يذوبُ في غبَشِ المدى
سبعون خريفاً . .
وسبعةُ آلافِ كارثة .
الندوبُ والدماملُ لا تُحصَى
والخيباتُ ، بشتّى ضروبها ،
لا تحصى
وكذا الأحلام والتحديات
أمٌّ واحدةٌ . . وربيعٌ يتيم
رياح تهزُّ القلوبَ والأوتاد
وغيوم تلوّنُ الآفاقَ بالبشائر

وها هو النهرُ يغادرُ ضفافَه
ويعلنُ العصيان

***

كان يا ما كان!
وتَغَصُّ القرى بدموعِ السَّحاب

- ٢ -

مهرةٌ نافرة
في جِمارِ الصبابة
جواد يطيحُ بفارسِهِ
يعبُّ الصبابةَ ورديّةً
تطير به نشوةٌ من رؤى شهرزاد
ويغمره شغَفُ الدفلى بالوهج القديم
الغويُّ الأصيلُ الأصيل
يموتُ
ولا يخونُ موسمَ النَّزَوَان

كان يا ما كان . . .

الفارسُ الشهمُ طريحُ الفراش
يهمُّ بأمر العزمِ . . لو يستطيع
وقد حيلَ بين العيرِ والنزوان!

كأن صخراً لم يكن علَماً
لهَدْيِ التائهين . . .
وأصابعُ العابثِ المريب
تجوسُ في كثبانِ اليمامة
محمومةً ، لاهثةً :
«متى . . متى؟!»
تقول الدميةُ الفارك :
«ليس حياً فيُرجَى . .
ولا ميْتاً فيُنعَى . . .»!
فانزفي روحَكِ الشاعرة
في سهوبِ الدمِ الذي هدروه
يا خنساء!

٦ / ٣ / ٢٠٠٣

أطوار

ـ ١ ـ

سائحٌ في البياض
ينتشي بالتورُّدِ
ريّانَ بالأسئلة :
كيف يختمرُ الثلجُ والشهدُ
في جسدٍ من سراب؟
كيف يمتزجُ اللحمُ باللحمِ
والماءُ بالجمرِ
والبرقُ بالرّعدِ
والنهرُ في لجةِ البحرِ
في رحلةٍ واحدة؟

ـ ٢ ـ

يشتهي غيبوبةَ الوصلِ
يحسُّ الجمرَ في الأجواءِ
وهّاجاً
ولكن الجواد

فقد الأرض التي تغريه بالمرعى
حرونٌ ، تاه عن ديدنه
وهو لا يصلح يوما للسباق .

- ٣ -

تخلعُ الكثبانُ آلاءَ الحرير
أرنب تاه عن السربِ
فلم يبرح كنانَ الزاوية
خائفٌ من نزوةِ القنصِ
وغشيانِ الجليد
يتمنّى وهجَ نيسانَ
لإيقاظِ اختلاج السرِّ
في نهرِ الحياة
مطلقا في كيمياءِ الليلِ
إعصارَ الجسد
يعجنُ اللهفةَ بالخمرةِ والشهدِ
يلفُّ النهرَ بالحمّى
ويجتاز الضفاف .

- ٤ -

جاءت الشمسُ ملفوفةً
بوشاحِ الخريف

أقول لسيدةِ اللوزِ
لا تنفري من حديثِ الغمام
واسكني شغفَ القلبِ
دربُ الغواياتِ لا يؤتمن
ولكنَّها تعبرُ الجسرَ
مزهوَّةً بالرؤى والظلال

***

في خيال ابن شيحانَ
يخضرُّ عرسُ النخيل
زاهياً يتملّى رفوفَ الطيورِ الغريبة .

- ٥ -

كيف أمضي معك
وليس لي نجمٌ ولا ظلال
ولم أهيِّئ صرَّةَ السفر؟

***

أجنحتي ملحٌ
وكلُّ معدني رمال
وأنتِ من سلالةِ الأنسامِ والطيوب
كيف نعبرُ دوَّامةَ الهاوية
وليس بأيديكِ قوس السحاب؟

والقمرُ السابحُ في عينيكِ
مضى به الحوتُ
ولم يترك أثرا

بيرالدم

في زاويةِ الدارِ الشرقيَّة
خارجَ ميعادِ الظل
بئرٌ طافحةٌ .. لا بالماءِ
ولكنْ بتراثِ الدم

حبلٌ ليفيٌّ مفتول
ينتظر الأيدي والبَكَرة
أوَ تدري أيٌّ دلاءٍ يبغي
حبلُ الشرفِ القحطانيّ؟
لا بأس!
أعناقُ صبايا
هاج بهنَّ العشقُ الأندلسي
حتى فاض
واختلَتِ الأيدي والأحقاد
بضحاياه
يا للثاراتِ وحمّاماتِ الدم

كم تزهر أفراحُ مواسمِها
بين ديوكِ الفقهاءِ
وثيرانِ العربان!

وردة للقرية(*)

سكنَ الزلزالُ واختارَ اسمَها
من رقصةِ الأرض على
خطٍّ المطر
تلبسُ الأعراسُ أكفانَ الضحايا
وتداري سحبَ الحزنِ
بفيضٍ من عزاء
نسجتْ آلاءه سورةُ يوسف

***

طفلةٌ تقرأ ياسينَ
على قبر أبيها
أيها الغارق في بحر الزبد
كيف لا تمسحُ بالرحمنِ وجهَك؟
ما الذي يمنع أن تغسلَ
آثامَ يديك
في ليالي رمضان؟

***

(*) اسمها «الهزَّة» . . وكثرة الخرائب حولها توحي بأن زلزالاً أصابها يوماً فأخذت هذا الاسم .

يبحرُ الأطفالُ خوفَ الجنِّ
في دفءِ صدورِ الأمهات
يقطفُ العشّاقُ في أخبيةِ العتمةِ
ألوانَ المسرّاتِ . . .
ويشكون المجاعة
وكرومُ اللوزِ في نيسانَ
تسخو بهداياها
وترتاح على صدر القمر .

وردة لحمص

تنحني دائرةُ الوهجِ على
صدرِ الأفق
تلك أطيافُ المصابيحِ
فلا تحلمْ بعيداً بالقمر
الثُّريَّا نهضت من خدرِها
وهديرُ العربات
يوقظ الفجرَ . . .
وآمالُ الرجال
تُثقلُ الدربَ بخيراتِ البيادر

***

يزهرُ الحرفُ وتزهو
بالأماني صبواتُ المدرسة
يُسبغُ العاصي على جيرانهِ
ما يشتهون
والبساتينُ التي فاضت هداياها
على كلِّ البيوت

تكملُ الأفراحَ في عيد المشايخ
قبل أن يرحلَ عن ساحاتِها عرسُ الربيع
وتداوي بركاتُ الأضرحة
بالصبايا والرياحينِ وغيثِ الأدعيات
لوعةَ العشاق في كلٍّ خميس .

وردة لدمشق

بردى أغنيةٌ في البالِ
وادي بردى ، كيوانٌ ، ساروجا
مقاهي قاسيونَ ،
الشيخُ محيي الدينِ ،
أعراسُ الصبا والياسمين
تغمرُ الأرجاءَ بين الغوطتين
بابُ توما ، ساحةُ المرجةِ ، بابُ الجابية
حارةُ الأكراد ، أفراحُ الحميديَّةِ
محرابُ أميَّة
سكةُ المترو ، أبو ناصيف ، تمثالُ المعرّي
عشقُكَ المصلوبُ في بوّابةِ الميدانِ
صرحُ الجامعة . . .
تشعلُ الذكرى تباريحَ الغروب
لم يعد فردوسُك الشاميُّ
إلا صوراً أو خطراتٍ من رماد
تتهادى في لياليهنَّ أطيافُ الأحبّة
وينام القمرُ الورديُّ في قاع الغياب .

.. وللغراب شوكة

لست مشتاقاً لمرآكَ
ولا أخشى حضورَك
وجهك المنقوشُ بالجدريِّ
لا ترضى به سودُ المرايا
وأنا باقٍ على عهدي
فلن تسمعَ منِّي «مرحبا»!
إنني أعرفُ سرَّك
لم تكنْ يوماً سوى عبدٍ لمولاكَ
ولم تفعلْ له أكثرَ من ساعي بريد
وإذا وافيت منسَلاً من السقفِ أو الشُّباكِ
في ثوبِ حمامة
لن أرى فيك عدواً أو صديقا
إنما يُضحِكُني الزيفُ
وأرثي لهواةِ الأقنعة
وعسى أن أنتشي في ضَحِكي
حتى أغيب .

مواسم

-١-

ضفدع يندبُ ملهوفاً
على أنثاهُ
لو تُسعفُه
في خلوةِ الماءِ
طقوسُ النَّزَوان
لم تزل ساخنةً ريحُ المدار
وطيوفُ الياسمين
غسلت حمّى لياليهِ
لدى عرسِ الفراتينِ
ولكنْ
نَسِيَتْ أنداءَها في بردى .

- ٢ -

أرنبٌ يلبد في زاويةِ الحوضِ
غلاميٌّ الهوى بضٌّ الحرير
سادراً كالجمرِ في عزلتِهِ

عاقداً أعراسَه خارجَ ميقاتِ الفصول
شفتاه وردةٌ جُورِيَّةٌ
مخمورةٌ بالأرجوان
يتشتهّى نارَها سيجارُ هافانا
ولا يقوى على خرق الضفاف

***

أرنبٌ لم يرعَ في جيرتهِ
ما اكتنزت جيهانُ في صندوقِها الخمريِّ
بين الرَّبْوتَيْن
من أفانين الحراثة
ربّما فار الهوى في كبد التنُّورِ
وانهارت من اللوعةِ أعصابُ الفصول
وهي لا تدري . .
ولا تذكرُ من نُعمى غواياتِ الصِّبا
غيرَ اشتعالِ القمرِ المفطومِ
في صيفِ الحقول .

- ٣ -

تنهضُ الأرضُ على ناصيةِ الثورِ
وتسترخي على قرنيه
تختارُ مواقيتَ الفصول

***

ضبُعٌ رقطاءُ لا يحلو لها غيرُ الجيف
خشيت أن يقطعَ الثلجُ
دروبَ المزرعة
لحت زاهي وراء التلِّ
محنياً على غلمته
رافعاً ما يشبه الرايةَ
لو تحتملُ الحربَ
أتانٌ شاردة
ساءها أن يعلنَ الكرَّامُ
ميعادَ القطاف
قبل أن يفرغَ مخزونُ الدنان .

ـ ٤ ـ
البناتُ اللواتي تدثَّرنَ بالنعشِ
خوفَ افتراسِ البكارةِ
ما بين دبٍّ صغيرٍ
ودبٍّ كبير
بسطنَ إلى الجدي حبلَ الوصال
***
لماذا تغارُ الثُّريَّا . .
ويذوي ربيعُ القمر . .
كلما نشرت عاتكة

على دربِ عشّاقها
وردةَ الجلّنار؟

- ٥ -

فقّاعة أو حلَمَة
طافيةٌ على فمِ الإبريق
لعلّها من لبنٍ
أو غلمةٍ
أو من رحيق
تستدرك الملدوغَ
بالترياق

***

يا وردةَ المدار
كيف تركتِ بردى
مستوحشاً ينوءُ بالأغلال؟
أليس في عنابرِ الخليج
أو في مواني فارسٍ
من سامرٍ يجود بالصهباءِ
أو يسعفُه بظبيةٍ رداح؟!

طيف

زائرٌ يشبه الحلمَ عند اختلاط النعاس
كأنَّ الجواد الذي يمتطيه
موجةٌ من سنا البرقِ
أو لهبِ العاصفة
أُحِسُّ بأنفاسِه تحرقُ الجوَّ حولي
سنابكُه تخطفُ الأرضَ
سارية الغيم تزجي صهيلَه
ولكنني لا أراه
أكان خيالَ التي واعدت أن تردَّ الربيعَ
إلى أيكة القلبِ؟
يا فرحتي بالسراب!
أكان الأريجُ الذي امتاح أنفاسَها
ودفءُ الرَّحيق الذي سال في بوحها
نفحةٌ من نداء الأقاصي . .
رؤى من حنين القصيدةِ . .
أم قطوفا شوارد من شجن الذاكرة؟

***

وكان . . يا ما كان!

حرمان

لو تذكرينَ ليلةَ العقيق
غاص الحميمُ فيكِ قبل العاشرة
وهو لدى بوّابة الخمسين
محنّكٌ
علاّمةٌ
بحرٌ بأحوالِ الحسان
ويوم غابَ ظلُّه
وأقفرَ الليلُ من العشّاق
نذرتِ للهلال
أن يتوارى كلّما لاذَ بسروالكِ
عفريتٌ من الأشباح
لا تشتكي من غيهبِ العمى
ولا تضيقي بأهازيج الكلاب
أصحابك الفحول جاهزون
شِيباً وشبّاناً . . وبينَ بين
لا لست أختاً لهم
ولا بتول
ولن تكوني مرضعاً

وصدرُكِ الذاوي بلا حليب
نصفُ الحصاد في يديكِ
جاهزٌ للبيع والشراء
والسوقُ لا تضنُّ بالرواج :
يا من يحبُّ أن يغوص
في لجَّةِ الحريرِ حتى يكتوي
بغبطةِ الدوار
أو يستبيحَ نشوة الوصال
هذي كروم جسدي
أليس في جزيرة العرب
ولا بلاد فارس
من فتيةٍ تشفي من الحرمان؟!

أسير الغابة

- ١ -

هي سِيرةٌ موّارةٌ بين البراعمِ والجذور
لا بأسَ أن نروي شواردَ من طرائفها
ونوجزَ في الرحيل
ذئبٌ يجوسُ الليلَ
مسعوراً ليقنصَ ما يواتي
من ظباء بني سدوم
وهناك آلافُ الذئابِ الجائعاتِ
تنوشُ بالحرمانِ أعصابي
وتعوي في فراشي .

- ٢ -

في سكونِ الظلامِ المريب
أحاول أن أتقرّى خزائنَ روحي
وأقرأَ أشياءَها في الخفاء
أما زال بين رفوف الغبار
وأغشية العنكبوت

بقايا من الوردِ
والخمرِ
والمرمر البابليّ؟
أما زال في قاعها معدنٌ واحدٌ ،
كِسرةٌ أو شظيّة ،
أثرٌ ساربٌ . . أو فتات
لم يهشّمه داءُ الصدأ؟!

- ٣ -

سائل زئبقي
زعاف من الكيمياء
يتمشّى وئيدا إلى دارةِ الحلمِ
ينسلُّ عبرَ الخلايا
ويندلحُ في خلجات الينابيعِ . . .
يا لبنَ الأمِّ لا تعتكر
إذا دهمتك غيومُ الخفافيشِ
في ليلة غاشية
وزوّدها فقهاءُ الدجى
بحرابِ المغول
سيبقى لك الشهدُ والياسمين
وإن خنقوا الأرضَ بالقطران .

- ٤ -

الثعابينُ في غرفةِ النومِ
تنسلُّ بين الحشايا
وفي تمتمات الوسادة
تغمِّسُ أنيابَها في عرى الكلمات
وتنفثُ صفراءَها في حليب الفطور

***

سعارُ العقاربِ يرشحُ
من زرقةِ الشاشةِ المخزية
ويكمن بين سطور الجريدة
ويوشك أن ينتهي في دمي .

طفلةُ الجلَّنَار

إلى أطياف صديقة فراتية . . .

أتذكرين في أي المنافي التقينا؟

آيةُ السَّعدِ
أم بشائرُ آلاءِ نيسانَ
عبرَ سماءِ المُحيَّا
تُهِلُّ وتخطفُ روحي
إلى سدرةٍ في الأقاصي
أقولُ لها في ذرا
نشوةِ القلبِ
يا طفلةَ الجلَّنَارِ :
متى شَكَّ نجمي
على أفقِكِ السندسيِّ
وشاحَ ولادتِه؟
أفي بابلِ السحرِ . .
أم في بساتين شيرازَ؟
عند مرايا زبيدةَ . .
أم حول إيوانِ كسرى-
مَحجِّ النُّواسيِّ في دجلةِ الأنسِ؟
أم في دمشقَ الغوايةِ

والأخُ يجتزُّ رأسَ أخيه؟!
أكان اللقاءُ الذي انبثق الكونُ
من طينِه العنبريِّ . .
هناك؟
هنالك؟
أم هاهنا . . .
على شرفةٍ تستعيد لنا
خمرةَ الأندلس؟
نسيتُ البداياتِ . . .
هل أسعفتني غيومُ البحارِ التي
سكنت شهدَ عينيكَ
يا سورةَ الفرحِ المشتهى؟
ألوذُ بأهدابِ منديلكِ الكربلائيِّ
كيف استباحَ طفولةَ روحي
ورشَّ الأسى في نسيج الهواء؟
أبارك ذاكرتي باسمكِ النبويِّ العريق :
هنا . . خمسةٌ
بدأت هجرةُ الهاشميِّ بها
وهنا واحدٌ . . يشبه الرمحَ
تزهو به قامةُ الخيزران
وتشبك يسراه جوهرةً من ثلاثة
فكيف تخطّيتِ كلَّ البروجِ

وطرتِ إلى راية المِئتين؟
لستِ غانيةً من سدوم
ولا خادماً مكتراةً
لبنت يهوذا
ولكنك البَرزةُ السيِّدة
أميرةُ زمزمَ . . بنتُ الفرات
وإن قام صاحبُها الإمَّعة
بهتكِ جوارحِك الغالية :
عروةُ الوردِ يلتهم الخَفْضُ برعمَها
ويغرزُ أشفاه في شحمةِ الأذنين!
أيرضيك فِعلةُ هذا العجوزِ الرقيع؟

***

أيَّ زهرٍ أسمِّيك
إنْ هاجرت أسرةُ الجلَّنارِ
لتسكن صحراءَ قلبي؟
شجرُ اللوزِ يحتارُ
في حضرةِ الأقحوان
كيف يُهدي أميرةَ ميسانَ
نافورةً من لآلئه!
وكيف يندُّ البنفسجُ عن لونِه المريمي
ليختصرَ الكونَ بالأرجوان؟
سأترك وجدَ الخزامى وغيرتَها

مرايا يراودها النرجسُ الألعبان
وأنثرُ أنداءَ روحي
سحابًا يصونُ مُحيَّاكِ
من لفحةِ القيظِ
أو غمرةِ القهرِ
عند اشتعال المدار .

نيسان ٢٠٠٦

بازار وصكوك غفران

- ١ -

الدكاكينُ هنا صاحبةُ الأمرِ
وربُّ الملكوت
كلُّ شيءٍ خاضعٌ للبيعِ
من إشراقةِ الحلمِ
إلى حورِ الجنان
كيفَ صُبَّ الزَّيتُ
والصحراءُ
واللاهوتُ
في بوتقةٍ سحريَّةٍ
ملءَ الخوابي
والجهات
واستحالت سلعةً واحدةً
يلهو بها الدولارُ
في سوقِ النِّخاسة!

***

لم تَزَلْ روما هنا

ولعبة السباع في مسرحها
تفترش الدماء
والأرِقّاءُ كأسرابِ النِّمال
قلبوا الكثبانَ جنّاتِ نخيل
ومفازاتِ الصعاليكِ صروحا
من حديد ورخام وزجاج

***

قلبُ روما قُدَّ من صخرٍ
ولا تَعنيهِ أوجاعُ العبيد
ورؤى الحريةِ العزلاءِ
لا تزهرُ أو تثمرُ في ظلٍّ
حسام أو صليب
فلْتنمْ أحلامُهم تحت هلالِ المئذنة

***

من ترى دشَّنَ المجزرة
في البلاد التي صاغت الأبجدية؟
تاجرٌ ورثَ الصولجان
من أبٍ عسكري
ضمَّ في جوفه غابةً من وحوش
وحوله خصيانُ دارِ الحرب
أو غيلانُ بيتِ المال!

***

رقيبُ الحروف التي أشربت من دمانا
يجيد طقوسَ النخاسة
وجيشٌ من الكلمات البغايا
يحاصر أطفالنا في الصحف .

- ٢ -

كرةٌ من البِلّورِ
طافحة بألوان الزبَد
ومجالها قوسُ الطوالع
يلهو بها جيشٌ من الكهنوت
ويقول أكبرُهم :
هذا طريقكَ يا رفيقي
فالتزمْ نهجَ الكفاحِ
ولا تَحِدْ عنه
هذا طريق الشعب
عمّالا وفلاحينَ
مطرقةٌ ومنجل
الدينُ أفيونُ الشعوب
فلينعمِ الأحرارُ جَمْعاً بانتهاءِ الرقّ
ولنَسعَدْ معاً بالخبزِ والكَافيارِ
والفرحِ المَشاع
فردوسُك الموعودُ بين يديكَ

في نورِ الإرادة
لا خلف أستار الغيوب
فاحرَصْ عليهِ
واحترِسْ ألاَّ يضيع
ـ: من قال هذا؟
خازنُ الفردوسِ مركوشُ الحكيم
أنسيت أنَّ وريثَه المأفونَ
أوصى أن يؤول الصولجان
ملكًا لفافوش العظيم؟
كنْ قطرةً في موجِ شعبك
كن موجةً في البحرِ
ولتسقطْ قلاعُ البرجزة
شامٌ شريف!

***

كرةٌ تدور
ويقول آخرُ مولعٌ بالشَّنفَرَى :
هذا سبيلُكَ
أو طريقكَ
أو صراطكَ
أنت حرٌّ يا أخا يعرب!
فردوسُك الموعودُ
يؤخذُ بالنضال

أهدافنا :
«حريةٌ . .
تزهو بألوانِ السياط
والأمةُ السمراءُ واحدةٌ
لا تقبل التشطير إلا في القصائد
أو عند تقسيمِ الغنائمِ
والرسالةُ خالدَة»!
المجد معقود على سورِ الإذاعة
تخلو به وتُطيحه في التيهِ
عاصفةُ انقلابٍ عبقريّ
حتى نرى رمَّ القبائلِ
منثورةً عبرَ الدروب
ـ: من قال هذا؟
خازنُ الفردوسِ زهرُ الزيزفون
أو مريدوه الفحول

***

كرة تدور مع الرياح
كرة أحاطوها بأسواق الجواري
والأماليدِ الحسان
والسعرُ بخسٌ كالتراب!
ويقول خرتيتٌ من البازارِ :
أقبِلْ . . فقد أزفَ القَبول

الوصلُ دونك يا أخي . .
لا تسهُ عن فرضِ الخلاص
طهِّر قميصَك بالدماء
أتقنْ فنونَ السيفِ
واستمتعْ بتقليمِ الرؤوس
حتى يتمَّ لك الوصال
هذا صراطُ العارفين
إيَّاك أن تقفو سوانا
فردوسُكَ الموعودُ
أقربُ من عناق الأرض والمحراثِ
في أشهى طقوس التجربة
ـ : من قال هذا؟
سيِّد الحكماءِ
معجزةُ الزمانِ
أبو رغال!

***

طوبى لقافلةِ البغالِ
إذا اطمأنَّت في رماد الكلسِ
أو داخت من الدورانِ
في حمَّى لهاثِ المعصرة!

زينب تغادر مروحين

ضبابٌ دمارٌ دماء
دروبٌ موشّحةٌ بلحومِ البشر
لست أدري
ولا أتذكّرُ
كيف انتهى عرسُ قانا
ولا أين حطّت رياحُ جهنّم
بأهلي وباقي صحابي وجيراننا
ربما صار جسمي رمادا
وروحي دخانا
وأنا . .
حين أحكي لكم عن بلادي
ورحلةِ أهلي وراء الغمام
لا أرى بلسماً أو عزاء
في نسيجِ الحكاية
ولكنّ مدرستي
وهي تنهارُ تحت غاراتهم

أوجعتني وأدمت دموعي

***

سحبٌ من جحيمِ يهوذا
تسد الطريق
سحبٌ من طيورِ المنافي
تحاصرُ قلبي
أبي . . قائد الركبِ
ألوى به عطبُ الحافلة
وأنا أتملّى سكونَ الجبالِ
يمزّقه الخوفُ من غارةٍ داهمة
أَبي . . يا أَبي . . يا أَ . . .
واندلقت شرفاتُ الجحيم
طفحَ الدمُ ملءَ الجهاتِ
يغشّي زجاجَ العيون
وأنا . . ريشةً صرتُ
في قبضةِ العاصفة
أتذكّرُ في غمرةِ الهولِ
حِرْزًا . . ملاذًا يسمُّونه «نقطة الدائرة»
أطيرُ وآوي إلى ظلِّه
أعلّقُ روحي بأهدابِ سدرتهِ
يمد يدًا من وراء الغمام
أرى في أسِرَّتها وجهَ أمي

هنا مريمُ الطهرِ تحتضنُ الكونَ :
لا خوفَ يا طفلتي
فادخلي في جناحي ونامي

***

تلوح على شفقِ الذاكرة
شظايا ديارٍ كأني بها مروحين
وحافلةٌ حوّلوها إلى مقبرة
تضمُّ ثلاثاً وعشرين ذكرى
وألفَ سؤالٍ
وألفَ فجيعة

***

التوابيتُ ملفوفةٌ بدموع الزغاريدِ
كيف التقى منجلُ الموتِ
في حضن قانا
بأفئدةِ الأمهات؟
لا نبيذَ هنا يفرحُ القلبَ
لا ماءَ
لا شيءَ غيرَ مروج الدماء
دماء
دماء
أكانت حياةٌ هنا
أم هو الموتُ سيدنا العبقريّ؟

وكفى المستريحين تحت الركام
أن يروا ما أرى!

***

من زنودِ الشبابِ
ومن جَلَدِ الأمّهاتِ
ونورِ السماء
أطالعُ ما كتبته رياحُ الجنوب
في صخورِ الجبال
هنا كانت المدرسة
ومن خلفها ملعبٌ للصغار
وهنا جامعٌ
وهناك بيوتٌ على السفحِ
آمنةٌ كبروج الحمام
ومقهى على كتفِ النهرِ
لا تنبشِ الذكريات
فالجراحاتُ لم تبترد بضماد
هنا . . شجرٌ كان
لا الصبايا شهدنَ القطافَ
ولا عاشقوهنّ ذاقوا جناه
هنا . . صبية ينصبون المراجيحَ
أشلاؤهم نثرتها القذائفُ
سربَ فراش

حقولٌ من القمحِ مفعمةٌ بالرؤى
حصدتها الجنازيرُ
والتهمتها وحوشُ الجحيم
أتملّى كرومَ العنب
وأبكي شقاءَ السنين
وأغلى ثمار الكفاحِ الطويل
كيف تسحقه آلةُ الحقدِ
مشحونةً بالسعار
. . . . .
ولكنْ ، وراء سواد الغيوم
وخلف النعوش التي كسرت
خرزةَ الظهرِ في مروحين
وفاضت رباها بأحزان قلبي
أرى أرزَ لبنانَ يسمو ويزهو
ويمتد عبرَ ألوفِ الجهات
ليحتضن الكونَ بالحبِّ
والطيبِ
والعافية
ويأسو جراحَ البشر
بآلاء خضرته الحانية .

آب ٢٠٠٦

تهويمات دائخة
في صيف بيروت

ـ ١ ـ

في حضرة الأميرة الزرقاء
وفي مرايا سحرها
أجلسُ كالمعتوه
مشاهد الخراب في كل مكان
وفي متاهات الدم المسفوح
يختنق الشعور
وليس لي فيها سوى اللهاث والمكابدة
لأدفع الجنون
خارج قوس النافذة .

ـ ٢ ـ

أقرأ عن بيروت
تعصفُ بي دوّامةٌ تُوهِمُني
بأنني أكتب عن بيروت
تنكسرُ الحروفُ أو تسقطُ
في تابوتها الطيني

وقبل أن تدخل في مخاضها
تنزف حتى الشهقة الأخيرة
ويرتمي قلبي نثارا
بين أشلاء الأقاحي والطيور .

- ٣ -

أدخل في غيومِك الصفراءِ
يا بيروت
أنسابُ في غلائل الركام
أقرأ ما ينقشه البحرُ
على صحائف الشطآن
ينتفض الفينيق في رماده
فيزهر التراب والأنقاض
أحس بالأطفال يخرجون من أكفانهم
والأمّهات يستعدن شهوةَ الحياة
وتنهض البيوت
والمدارس المدمَّرة
حتى جسور الحب والوصال والعطاء
وهي ترد الموت عن أوصالها المهشمة
تغمرها إرادة الحياة .

- ٤ -

أهذا كتابكَ يا تاجر الدمِ
أم نتفٌ من زعانفِ شارونَ
تلهو بها الريحُ
عبر براري سدوم؟
ليت لي لغةٌ لا يشاركني
في عُرَى أبجديَّتِها
سادر في سديم الغيوبِ
ولا تاجر في بيوت قريش .

- ٥ -

كيف أقرأ بيروتَ
في غابةِ المجزرة؟
قلوبُ الصبايا . .
وقد نهشَ القصفُ أسرارَها
فاحتمت بالسكون
عيونُ الصغارِ التي أطفأ الوحشُ
ضحكتَها فاكتست بالتراب
كيف أدرك هول احتراق البراءةِ
في عريها المريمي
والأسرَّةُ صارت قبوراً
لأشلائهم؟

دفاترهم مزقتها الشظايا
ولم ترحم الكلمات .

ـ ٦ ـ

هل فقدت شعور بني آدمٍ
يا وحيد الزمان
لكي تتسلّى بقتل الفراخِ
وتملأ كرشك مستمتعا
بدماء الصغار؟
من رأى أن عرشك الزئبقيَّ
سيبقى وثيراً على الماءِ
في حوضِ نفطٍ مُصفًّى
وفي سافيات الرمال؟
هاتِ قل لي :
أيها كان أغلى مزاداً لديك؟
حرم الكعبة الطاهرة
أم جراب من الزيتِ
أم سُربة من ظباءِ القصور؟!

ـ ٧ ـ

وفي آخر الصحوِ
أو في بهاء الكرى

أتابع تشريح قلبي
على طبق الشاشة الفاجعة
إمام فصيلتنا لم يزل يعلك القاتَ
في خطبةِ الجمعة
فحول النعام التي تخلط الأرزَّ بالرزءِ
والزير بالزور والزار والزعبرة
تغطِّي مخازيَها بالزئير .

- ٨ -

بيروتُ . . يا بيروت
يا هِروشيما آخرِ العرب
لا ، لن تكوني أبدا طروادةً جديدة
وليس لي أن أستقي من جثث الضحايا
أسطورةً للصبرِ والتحدي
بيروت يا حريتي
يا خمرةَ الشعرِ
ويا خميرةَ الولادة
يا بذرة النار التي يحضنها الفينيق
باسمك يا حبيبتي
باسم الجنوب والبقاع والشمال
باسم القرى والبحر والجبال
باسمك يا منارة الأجيال

أبارك الفتح الذي أبدعته
في أرضنا أغلى من النصرِ
وأغنى من ليالي شهرزاد
***
باسمك يا بيروت
وباسم قانا
مروحين
عيتا الشعب
بنت جبيل
عيترون
وحتى مارون الراس
(وإن أطاح القصفُ إيقاعَ الخليل)
سأقرأ الفاتحة الأخيرة
على بقايا جيفة يدعونها أعمدة العروبة
من بردى حتى دجاج الأطلسي .

- ٩ -
كيف أرسم أشلاءَ قلبي
على طبقِ الأرزِ
يا هِروشيما الحبيبةُ
يا أرضَ بيروتَ
يا لحمها وجوارحها النازفة

ويا أهلها وشموع سماها!
تنهضين من القتلِ
أبهى
وأسمى
وأقوى
ويبتلع البحرُ كلَّ أعاديكِ
كلَّ القراصنة الداهمين
وكلَّ فنون الغزاة
وآلتها الضارية .

تموز ٢٠٠٦

بطاقة الشاعر

- من مواليد ١٩٣٦ في قرية (الهزة) : محافظة حمص- سورية .
- درس الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق .
- له مسرحية شعرية بعنوان «السيل» من منشورات اتحاد الكتاب ، فضلا عن هذه الأعمال .
- له عدة ترجمات كان آخرها :
- يوم سادت الصين البحار (القوة البحرية للصين في عهد المينغ)
- «فن الحب» و«قصائد حب» للشاعر الروماني أوفيد ، في مجلد واحد بعنوان : «قيثارة حب» - منشورات المجمع الثقافي في أبو ظبي .
- عضو مؤسس في اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٦٨ .
- شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية ومهرجانات الشعر .
- عمل نحو ٢٥ سنة في الصحافة الثقافية في سورية ، محررا ومشرفا . . .
- أمضى ثلاث سنوات مدرسا للأدب العربي في جامعة طوكيو باليابان .
- مقيم في أبو ظبي منذ عشر سنوات ، ويعمل محررا في «دار السويدي للنشر» .
- يسهم في تحرير مشروع «ارتياد الآفاق» الخاص بآثار الرحالة العرب والمسلمين خلال الألفية الثانية .

E-mail : aa_kanaan@hotmail.com

a.shanfara@gmail.com

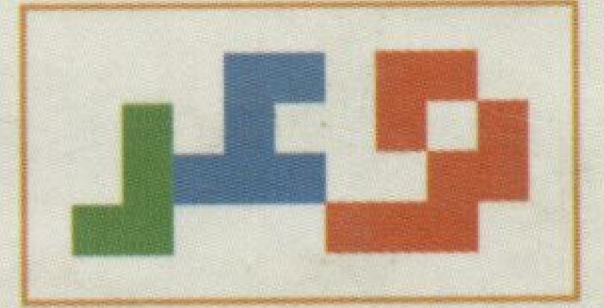
الفهرس

الفهرس

المجلد الثاني

VIII- برزخ للجنون

IX- أبجدية الينابيع 729



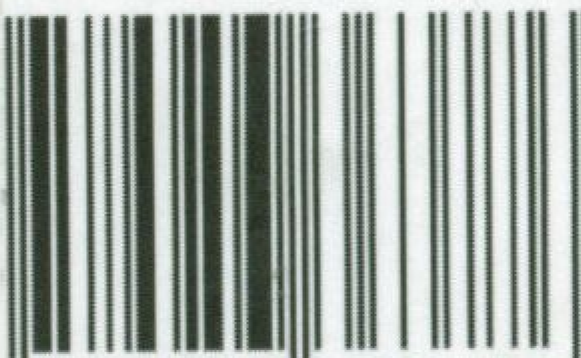


◆ ظلّت شعريّات علي كنعان ترتقي وتتطوّر ضمن معادلة كبرى: أنه كان حامل براءةٍ رعويّة مديدة ثاقبة الرؤيا والحسّ والحساسيّة، وباصرةٍ تصويريّةٍ وتشكيليّة خارقة، وانتماء نبيل في أتون اغترابٍ لا يقلّ نبلاً، من جهة أولى؛ وأنّ حاملَ الحامل هذا كان شعريّة فريدة لم ينهض امتيازها على أوهام حداثة نخبويّة جوفاء، أو على ألعاب تجريب مجانيّة عزلاء وانعزاليّة، من جهة ثانية.

وتلك معادلة صنعت قسمات كنعان الشعريّة الخاصّة، وأفردت له مكانة عالية في المشهد الشعريّ السوريّ على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين، كما ضمنت له صوتًا متميّزًا راسخ السمات في حركة التجديد الشعريّ العربيّة منذ أواسط الستّينيّات ومطالع السبعينيّات.

صبحي حديدي




ISBN 978-9953-36-377-3
9 789953 363776

